صالح جودت

اقرأ

بلابل من الشرق

Bibliotheca Alexandrina
0141361

اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٣٥٥] ١٥ أغسطس ـ ١٩٨٤

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية

رقم التصنيف ....

رقم التسجيل ....

رئيس التحرير أنيس منصور

ودث

الابل من الشرق

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

شاعر الرقة العاطفية

إبراهيم ناجي

سبعة من سراة العاصمة اتفقوا على أن يهجروا ضوصاء المدينة دون أن ينأوا عنها . فاهتدوا إلى مساحة واسعة من الأرض تقع وراء محطة مصر ، عند الموقع المعروف الآن بشبرا الصغرى ، وكانت يومئذ حقولا تجرى من تحتها نهيرات مياه الترعة البولاقية ، وتتفرع منها قنوات كقنوات البندقية .

وفى هذه المساحة الشاعرية ، أسسوا « مدينة الأحلام » وأقاموا بها بيوتاً هى أقرب إلى القصور : أولها بيت السيد حسونة الطوير (وهو يومئذ عامل تونس فى مصر) – يليه بيت المرجوشى ، التاجر الكبير بالغورية – يليه بيت العطار ، التاجر بالصنادقية ثم ينحرف الطريق يساراً ، وعند منتصفه يقوم البيت رقم ٢٢ بشارع العطار ، وهو بيت أحمد ناجى ، الذى نشأ فيه ابنه الشاعر إبراهيم ، ثم يليه بيت الشيخ إبراهيم الشرقاوى ، حفيد الشيخ عبد الله الشرقاوى الكبير .

وفى ركن من الحى ، يقوم بيت عثمان جلال ، الأديب المعروف وصاحب « العيون اليواقظ » يليه بيت الزعيم محمد فريد .

وهكذا أحاطت بشاعرنا فى طفولته عطور الزعامة الوطنية والدينية والأدبية والعصامية .

ومن اسم هذه المدينة الصغيرة – مدينة الأحلام – استوحى شاعرنا قصة نصف طويلة كتبها فى منتصف عمره، وظهرت ضمن مجموعة

من القصص المؤلفة والمترجمة ، أطلق عليها جميعاً اسم « مدينة الأحلام » .

وفى بيت من هذه البيوت السبعة أيضاً — ولا أسميه — كان الحب الأول فى حياة الشاعر ... الحب الذى طارد خياله طول حياته على يأس .

* * *

وشاعرنا هو ثانى أخواته وإخوته السبع .

ولد عند منتصف الليلة التى صافح فيها عام ١٨٩٨ عام ١٨٩٩ وسجل على أنه من مواليد ٣١ ديسمبر من عام ١٨٩٨ ، وكأنه أبى إلا أن يشهد عاماً واحداً من القرن المنصرم ، ثم يقضى بقية ما كتب له من العمر فى القرن الجديد .

ورث شاعرنا عن أبويه كثيراً من خلالهما .

ورث عن أبيه حب العلم ، والدأب فى القراءة ، والذاكرة القوية ، والقدرة على اللغات ، فأجاد الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وقرأ كثيراً من آداب هذه اللغات ، فإذا كان أبوه قد اكتسب الجاه بالعصامية ، فإن شاعرنا قد اكتسب الأدب بالعصامية ، فعلم نفسه مالم يلقنه إياه أستاذ ولا مدرسة ، ونبه شأنه — وهو الطبيب — فى الشعر والأدب والقصة وعلم النفس وغيرها من ضروب الثقافة .

وورث عن أمه إنسانيتها ، وخفة ظلها .

يروى عن أمه أن طاهى البيت أصيب بداء الرئة ، فاستبقته فى البيت بقية حياته ، تبصله وتحدب عليه ، دون أن يعمل ،

وقد نشأ ابنها الشاعر على شاكلتها إنساناً لا يملك ما فى جيبه ، وطبيباً عيادته مفتوحة الأبواب على مصراعيها لفقراء الأدب والفن وغيرهم .

وكانت هذه السيدة الظريفة تحسن النكتة . وقد نشأ إبراهيم على جديلتها ، فكان من ظرفاء عصره ، وله نكات مأثورة تجرى مجرى نكات البابلى والبشرى ورامى وغيرهم من ظرفاء العصر .

* * *

التحق شاعرنا ، أول ما التحق ، بمدرسة « سبيل أم محمد على » إذ كانت أقرب المدارس إلى البيت ، ثم إنها كانت على غرار رياض الأطفال فى عصرنا .

كان ذلك سنة ١٩٠٤ .

ثم انتقل إلى مدرسة باب الشعرية الابتدائية ، وبدأ يتفوق على أقرانه ويفوز بجوائز التفوق فى كل مناسبة . فلما أدرك العاشرة ، سأله أبوه أية هدية يطلب إذا نجح ، فأجاب شاعرنا بأنه يتطلع إلى كتاب من كتب تشارلز ديكنز ، إذ كان إبراهيم مفتوناً بهذا الكاتب . وإنك لتجده فى مقدمة كتاب « مدينة الأحلام » يقول إن تأثير ديكنز عليه كان بالغاً ، وإنه هو الذى فتح له آفاق الجمال ، فأصبح يحب الخير الذى كان ديكنز ينشده للفقراء والمعوزين ولوطنه وللناس جميعاً .

وهكذا سيطر عليه الحب الذى لا يكاد يخلو بيت واحد له من ذكره .

* * *

وانتقل إبراهيم بعد ذلك إلى المرحلة التالية من حياته المدرسية، فالتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا .

وهنا تبلورت اتجاهاته ، فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الحادية عشرة ، وحفظ ديوان الشريف الرضى من الغلاف إلى الغلاف .

ولم توافه سنة ١٩١٢ حتى كان ينشد الشعر — شعره هو — وهو فى الثالثة عشرة ، ينسجه على المنوال الذى حفظه . منوال الشريف الرضى ، ويستعين على ضبط أوزانه بالتفاعيل والدوائر والشرط .

* * *

بدأ شعر إبراهيم يتردد فى مجالس أصدقائه ، ويتناقله رواة عن رواة ، حتى رحلت به الوظيفة إلى سوهاج ، ثم إلى المنيا ، ثم استقرت به حيناً فى المنصورة .

والمنصورة أرض طيبة . تنبت الشعر والجمال ، والحب والخيال . وهى التى أنجبت للبلد عشرات من أعلام الشعر والأدب والمسرح والغناء والفنون عامة .

وفى المنصورة ، عرفت الشاعر إبراهيم ناجى ، إذ كنت يومئذ طالباً بالمدرسة الثانوية وكان لى زميل أثير ، هو الشاعر م . ع . الهمشرى ، وقد كان شاعراً موهوباً مأمولا لمستقبل ضخم ، لولا أن عاجلته المنية وهو فى أوج شبابه .

كنا نخرج أنا والهمشرى من المدرسة ، فنلتقى بشاعرين يكبراننا ، وكان المستقبل يتهيأ لهما يومئذ ، هما إبراهيم ناجى الطبيب ، وعلى محمود

طه المهندس ، فكنا نجلس نحن الأربعة على شاطئ النيل ، نقضى أجمل ليالى العمر فى حديث الأدب والشعر والجمال .

كانت هذه الصحبة مدرسة جديدة فى الشعر ، تقاربت خطوطها فى ذلك العهد إلى حد أن اختلط شعرنا على الناس فى كثير من الأحيان فنسب إلى غير صاحبه ، وإلى حد أن أحداً منا نحن الأربعة لم يكن يعرف من التلميذ ومن الأستاذ ، فقد أفاد كل منا بصحبة الآخرين .

وكان لنا أصحاب ثلاثة من شعراء الشباب فى الأدب الإنجليزى ، هم شلى وكيتس وورد زورث ، نقرؤهم كثيراً ، ونحس بما بيننا وبينهم من أواصر الشعر ووشائج الشباب وعبادة الجمال وروح الثورة على القديم .

وفى المنصورة ، نظم ناجى قصيدة « صخرة الملتقى » وبعث بها إلى مجلة « السياسة الأسبوعية » وهى يومئذ أعظم صحيفة أسبوعية أدبية ، فاحتفت بها الصحيفة ، ونشرتها فى مكان كريم .

وبدأنا نفعل ما فعل ناجى ، بعد أن كنا نشفق من إرسال شعرنا إلى الصحف مخافة الإهمال ، فأرسلناه ، وبدأنا نأخذ طريقنا إلى الناس .

* * *

وانتهت أيام المنصورة الحلوة ....

وزحفنا نحن الأربعة على القاهرة فى وقت واحد .. ناجى إلى وظيفته بالقسم الطبى بمصلحة السكك الحديدية ، والمهندس إلى وظيفته بوزارة الأشغال ، والهمشرى إلى كلية الآداب ، وأنا إلى كلية التجارة .

ومنذ ذلك الحين لم نفترق — أنا وناجى — إلى أن لقى وجه ربه، إلا ليالى معدودات .

عاد ناجى إلى القاهرة ومر بديار أحبابه الذين تغيرت مقاديرهم، فرآها تصفر فيها الريح وتكسوها خيوط العناكب، فنظم قصيدته «العودة» التى تعد أروع قصائده، ومطلعها :

هذه الكعبة كنا طائفيها   والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها   كيف بالله رجعنا غرباء ؟

* * *

دار أحلامى وحبى، لقيتنا   فى جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا، وهى كانت إن رأتنا   يضحك النور إلينا من بعيد

* * *

وكأن ناجى — بعد قصيدة العودة — قد أبى إلا يغير قدره كما تغيرت أقدار أحبابه، فودع أيام العزوبة، وخطب الآنسة «سامية» كريمة اللواء محمد سامى، أمين محافظ القاهرة يومئذ .

ولولا أن هذه السيدة كانت واسعة الأفق، ما استطاع ناجى أن يواصل رسالته كشاعر، وهو يطالعها كل يوم بقصائد مطولات عن حبه القديم، ثم يختم أمسياته كل ليلة بجديد من غزلياته، مرة فى «راقصة» وأخرى فى «سمراء المحفل» وثالثة فى «هند» ورابعة فى «سونيا» وخامسة فى «زازا» . . . إلخ .

ولم يعقب ناجى ولداً، وإنما أعقب ثلاث بنيات «

وكانت الوسطى « ضوحية » أقرب الثلاث إلى قلبه . كان يفتح لها مغاليق قلبه ، ويسرها النجوى ، ويختصها دون شقيقتيها بأكثر من قصيدة ، مما تجد فى دواوينه .

* * *

تلفتت مجتمعات الأدب إلى ناجى منذ عودته من المنصورة ، وتلقفته مجامعها مهللة محتفية ، فأصبح من المقربين إلى أمير الشعراء .

وحينما قامت جمعية « أبولّو » فى سنة ١٩٣٢ ، ورئيسها يومئذ أمير الشعراء ، وأمينها العام الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، كان ناجى فى الطليعة من رواد هذه الجماعة ، ووقع عليه الاختيار ليكون وكيلا لها ، وكنا نحن : على محمود طه وزكى مبارك والصيرفى والهمشرى ومختار الوكيل ، أعضاء فى مجلس الإدارة .

وفى سنة ١٩٣٤ ، ظهر أول ديوان لناجى « وراء الغمام » .

الغمام . . .الذى يتطلع ناجى إلى الأرض فيراه يحجب حقائق الناس ، فتلك راقصة تلهو وتمرح وكأنها أسعد أهل الأرض ، فإذا انقشع عنها الغمام ، تجلت وراءه مأساة دامية ، يصورها لنا فى قصيدته « قلب راقصة » ويقول فيها :

لا تكتمى فى الصدر أسرارا ... وتحدثى كيف الأسى شاءا
أنا لا أرى رجساً ولا عارا ... لكن أرى امرأة وبأساء

للغمام . . .الذى يصعد ناجى بعينه إلى السماء ، فيراه يحجب حقائق السماء ، فيسمو إليها بخياله قائلاً فى قصيدته « صلاة الحب » :

سموت ودق إحساسى وجزت عوالم البشر
نسيت إساءة النـــاس غفرت خطيئة القـــدر

* * *

ويذهب ناجى عقب صدور هذا الديوان ، إلى لندن فى مهمة علمية ، وتقع فى يده صحف القاهرة ، فإذا هى زاخرة بمعركة حول قيمة شعره ، وإذا بعض أصدقائه ، الذين طالما طربوا له وصفقوا ، يلحونه ويصغرون مكانته ... وإذا كاتب جهير ممن يوجهون الرأى الأدبى فى البلد ، يكتب عن قصائد « وراء الغمام » فيقول : « إنها أشعار حسنة ، ولكنها أشعار صالونات ، لا تتحمل أن تخرج إلى الخلاء فيأخذها البرد من جوانبها » .

هذه الجملة بالذات كانت أكثر ما هز كيان ناجى الرقيق هزًّا عنيفاً .

كان يخيل له أن صدور ديوانه هذا سيكون وثيقة كبيرة له فى طريق المجد ، يسجلها له الكاتبون ، ونسى أن المجد هو ما يسجله هو لنفسه ، لا ما يسجله له الكاتبون . ولكن جحود الأصدقاء الذين هاجموه فى غيبته هد كيانه ، وكلمة الكاتب الجهير تركت جرحاً عميقاً فى أعماقه ، فراح يردد هذا البيت :

هى محنة وزمـــان ضيق وتمخضت عن لا صديق

وانبرت جماعة أبولو تدافع عنه على صفحات مجلتها ، وعلى صفحات جميع المجلات ، ولكن كلّ هذا لم يخفف عن نفسه أحمالها .

وبينما هو سارح فى شوارع لندن ، شارد الفكر تائه النظرات ، دهمته سيارة أدخلت عظمة الساق فى الحوض من فتحته فكسرته .

ونقل ناجى إلى مستشفى سانت جورج ، وتجمع عليه فوق آثار الصدمة شدة داء السكر الذى كان يشكو منه ، وبرد لندن القارس ، كل هذا فوق المحنة النفسية التى كان يعانيها من ناقديه .

ورقد أشهراً فى لندن ، وأجريت لهجراحة خطيرة كللت بالنجاح وخرج من المستشفى يجرر ساقيه على عكازين ، ولكن المرارة التى فى نفسه عاشت معه بعد ذلك حقبة طويلة من الزمن ، حتى بعد أن ألقى العكازين .

وأدركت به الباخرة وهو فى طريق العودة ، مدينة البندقية ، فقال والنشوة فى عينيه ، والمرارة فى أعماقه :

يارب ما أعجب هذى البلاد   لاليل فيها ، كل ليل صباح
وكل وجه فى حماها ضماد   ومصر لا تنبت إلا الجراح

ثم أشرفت به الباخرة على شواطئ مصر ، فصاح يقول :

هتفت وقد بدت مصرلعينى   رفاقى ، تلك مصر يا رفاقى
خرجت من البلاد أجرسقمى   وعدت إلى البلاد أجر ساقى
أتدفعنى وقد هاضت جناحى   وتجذبنى وقد شدت وثاقى ؟

على أن القدر تلطف بالشاعر ، فاعتدلت ساقاه ، ولم تترك صدمة لندن أثراً فى مشيته ، وإن كانت قد تركت آثاراً فى أعماق نفسه .

• • •

عاد ناجي إلى مصر ، وقد كفر بكثير من القيم التى طالما آمن بها ، وفى طليعتها قيمة الصداقة ، وقيمة الشعر .

لقد هاله أن يجد بين أصحابه شاعراً يتنكر له بعد صحبة طويلة . فهجاه وهو الذى عاش يكاد لا يعرف معنى كلمة الهجاء .

هجاه هجاء تجرد فيه لأول مرة من نزعته الإنسانية العميقة ، حتى إنه تمنى له الموت ، واختتم أبيات القصيدة بقوله كما قال قيصر لبروتس : حتى أنت :

قال :

أيها الحى ، وما ضر الورى لو كنت متا ؟
أو شعر ذاك ، لا بل حجر ينحت نحتا
تلقم النـاس وترميهم به فوقاً وتحتا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتا
آه يا قاتل يا سفاك . . حتى أنت . . حتى ؟

ثم تنكر ناجي للشعر ، وأقسم ألا يقوله أبداً .

ولكن . . . هل يستطيع أن يخاصم قلمه ؟

لا . . وإنما اتجه به حيناً إلى القصة المترجمة ، ثم المؤلفة . على أنه لم يصل فى هذا المجال إلى شىء مما وصل إليه فى مجال الشعر .

وظهر كتابه « مدينة الأحلام » وفيه القصة التى أسلفت الإشارة إليها .

وقال فى مقدمة « مدينة الأحلام :

« وداعاً أيها الشعر . . .

« وداعاً أيها الفن . . .

« وداعاً أيها الفكر . . .»

وكأنما القصة ليست من الفن

وكأنما الدراسات النفسية التى اتجه إليها بعد ذلك ليست من الفكر .

وهنا . . .نسجل فضلا للأستاذ الدكتور طه حسين ، الذى قسا على شعر ناجى من قبل ، وقد هاله أن يطلق ناجى الشعر ، فأراد أن يحرضه على العودة إليه تحريضاً جميلا ، فأنشأ فى صحيفة « الوادى » فصلا مشوقاً قال فيه :

« إنى لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجى يعلن زهده فى الشعر ، لأنى قدرت أن الدكتور ناجى إن كان شاعراً حقًّا ، فسيعود إلى الشعر إن راضياً وإن كارهاً ، سواء ألححت عليه فى النقد أو رفقت به ، وإن لم يكن شاعراً فليس على الشعر بأس فى أن ينصرف عنه ويزهد فيه » .

وكان لهذا التحريض أثره عند ناجى ، فانحلت عقده النفسية واحدة وراء الأخرى ، وعاد إلى صفائه وأصدقائه وأناشيده الخالدة .

* * *

عاد ناجى يغرد بأجمل مما كان يغرد .

وعاد إلى حياة الليل ، لأنه كان يعشق الليل . كان أقل النوم يشبعه ، وأقل الطعام يكفيه ، وهو فى الحب كذلك ، أقل الرضا يرضيه . وكان معنا فى مدرسة الليل هذه كثير من أبناء المدرسة الحديثة — الحديثة

يومئذ – أذكر منهم محمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد رامى ، وإبراهيم المصرى ، والدكتور حسين فوزى ، ومحمود طاهر لاشين ، وعلى أدهم وغيرهم .

وقد شهدت هذه الجلسات أعنف معارك الأدب التى خرجت من المقهى أو الملهى إلى وجوه الصحف ، كما شهدت أبدع الأشعار وأمتع الأفكار .

وأذكر أن واحداً ممن يعيشون على هامش الأدب ، كان يجالسنا كل ليلة ويسمع ما يقال ويسجله أولا بأول ، كما يسجل ما يغتاب به بعضنا بعضًا من نقد ، فما لبث أن اجتمع له من كل ذلك كتاب كامل نشره ونسب ما فيه إلى نفسه ، وعد يومئذ فى الأدباء ، بعد أن أثار كتابه هذا ، الذى لا فضل له فيه إلا فضل المغافلة ، ضجة فى الأوساط الأدبية .

* * *

كانت الفترة التى هجر فيها ناجى الشعر غير مجدبة ، فقد راح يتلهى بترجمة القصة وتأليفها كما أسلفنا القول ، كما راح يترجم أهازيج شكسبير وشعر بودلير ، ويلقى المحاضرات عن فرويد وغيره من علماء النفس ، ويترجم المسرحيات ، ومن أشهر ما ترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ، كما راح يكتب للإذاعة ، ويقرأ فى أدب فجر الإسلام ، والأدب الروسى ، ويؤلف فى الطب ، ويصدر مجلة « حكيم البيت » التى لم تستطع أن تخلص من روح الأديب الشاعر الفنان ... ويصنع كل شىء إلا أن ينظم الشعر .

إلى أن مرّت المحنة ، ومرت معها محنة أخرى كان يعانيها من زملائه فى العمل ، وهذه هى الأخرى وجدت طريقها إلى الانفراج حين ترك مصلحة السكك الحديدية ، وعين رئيساً للقسم الطبي بوزارة الأوقاف ، وهذه هى الفترة الوحيدة فى حياة الشاعر ، التى كثر فيها شعره فى المدائح والمجاملات ردًّا للجميل ، كما يتبين للقارئ عند مراجعته لديوانه الثانى « ليالى القاهرة » الذى صدر سنة ١٩٥١ .

وطابت أيامه فى وزارة الأوقاف ، فى عهد الوزير الذى جاء به إلى هذا المنصب ، المرحوم عبدالهادى الجندى ، ثم فى عهد الوزيرين الأديبين إبراهيم دسوقى أباظة وعبد الحميد عبد الحق .

ثم ذهب المقدرون لأدبه ، وجاء غيرهم ، ودارت حوله الدسائس من زملائه وتكاثرت عليه الحفائظ ثم اتهمه الشانئون بأنه غير منتج ، وأنه منصرف للشعر والأدب عن الطب ، وانتهى الأمر بإخراجه من وظيفته وهو فى الخامسة والخمسين من عمره فيما سمى بالتطهير يومئذ .

وكانت الصدمة قاسية عليه من الجانبين النفسى والمالى .

صحيح أن أحمد ناجى كان عصاميًّا بدأ من الصفر ، ولكن ولده إبراهيم ولد فى ظل النعمة فى قصر فيه عربة وجياد وإماء وخدم وحشم .

وتعود الشاعر النعمة طول حياته .

كان يكسب كثيراً من عيادته ، ولا يبقى على شيء مما يكسبه .

فلما جاءت هذه الصدمة كان صفر اليدين إلا من معاش محدود .

أما دخل عيادته ، فقد أخذ ينفض عنه كما انفضت عنه الدنيا ،

إلا من الفقراء الذين كانوا لا يؤدون له على العلاج أجراً .

وينبغي لى ، قبل أن أترك سيرة ناجى ، أن أسجل أنه كان طبيباً نابهاً ، ولكن حقد من حوله جنى عليه ، وهكذا عرف ناجى الحرمان لأول مرة فى حياته ، فاشتد عليه داء السكر ، وألحت عليه ذات الرئة ، وراح يذوب سريعاً حتى انتهت قصة حياته فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٥٣ ، ورقد إلى جوار جده الشيخ عبد الله الشرقاوى بمسجده بجوار الحسين .

وزنل الستار على المأساة التى توقعها قائلا :

حان الوداع ، ففيم تنتظر ؟
نزل الستار وأقفر العمــــر

شاعر الجبل الأخضر

أبو القاسم الشابى

هذا شاعر ساحر . . .

عرفه العالم العربي لأول مرة فى عام ١٩٣٣ ، حين بعث لمجلة أبولّو — التى كانت تصدر عن جماعة أبولّو ، متخصصة فى الشعر ودراساته — بقصيدة عنوانها « صلوات فى هيكل الحب » .

فما إن طلعت هذه القصيدة على الناس ، حتى بهرتهم ، وتلفت إليها أدباء العالم العربى وشعراؤه ونقاده ، وتساءلوا جميعاً : من يكون هذا الشاعر ؟ وأين موطنه ؟ وما عمره ؟ وأين كانت هذه الطاقة الشعرية الضخمة مستخفية على عيون الأدب حتى اليوم ؟

وفى الحق أن القصيدة كانت ثورة فى تاريخ الشعر العربى الحديث ، وتاريخاً خليقاً بأن يؤرخ به لمدرسة جديدة فى أدب العاطفة المحاقة .

فإن أردت أن تعرف ماهية هذه المدرسة ، فإنى أترك أبا القاسم يحدثك عنها فى بحث له عن الشعر ، عنوانه « الأدب العربى فى العصر الحاضر » .

يقول أبو القاسم :

« ليس لنا أن نطالب الشاعر فى شعره بغير الحياة . وإذا جاز لنا أن نطالبه بأكثر من هذا . فلنطالبه بأن تكون هذه الحياة رفيعة سامية تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله . ففى الحياة كثير من الحماقات والدنايا ، يتعالى الفن عن التدلى إليها من سمائه العالية .

« فإذا قرأنا شاعراً ، وجدنا فيه إنساناً من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويحاورنا بالعطف والحس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنايا هذا العالم ومحقراته — إذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه فى ثقة وإيمان ، فإنه الشاعر حقاً » !

* * *

هذا هو رأى أبى القاسم فى الشعر والشاعر ، وهذه هى خطوط مدرسته .

فلننظر إلى أى مدى توائم هذه الخطوط قصيدته التى حدثتكم عنها : « صلوات فى هيكل الحب » التى أقتطف من مطالعها هذه الأبيات :

عذبة أنت .. كالطفولة .. كالأحلام .. كاللحن .. كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك ... كالليلة القمراء .. كالورد .. كابتسام الوليد
يا لها من وداعة وجمال . . وشباب منعم أملود
يا لها من طهارة تبعث التقديس فى مهجه الشقى العنيد
خطوات سكرانة بالأناشيد . . وصوت كرجع ناى بعيد
وقوام يكاد يهتف بالألحان فى كل وقفة وقعود
كل شىء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

* * *

هذه — فيما نعرف — أول قصيدة عرفه بها الناس فى الشرق العربى ، سنة ١٩٣٣ . أفلا يفجعكم أن أقول لكم بعد ذلك إن عاماً واحداً قد مر على نشر هذه القصيدة بمجلة « أبولّو » ... وإذا برسالة حزينة قادمة

من تونس – وطن هذا الشاعر – تقول إن أبا القاسم قد مات وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ؟!

كيف مات ؟

إليكم هذه العجالة عن حياته :

ولد أبو القاسم فى يوم من أيام الربيع ، من عام ١٩٠٩ . ببلدة « توزر » بتونس الخضراء .

ولا نعرف من أمر طفولته إلا أنه نشأ كما ينشأ كل تونسى ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ العربية . ولما بلغ أشده بعث به أهلوه إلى العاصمة التونسية ، فالتحق بمعهد الزيتونة سنة ١٩٢١ ، ونال إجازته سنة ١٩٢٧ ، وانخرط بعد ذلك فى كلية الحقوق التونسية ، فنال إجازتها سنة ١٩٢٩ .

وقضى الآونة بين ذلك العام ، حتى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٩٣٤ ، فى مكان يقال له « باب حومة العلوج » ... ويومئذ جاء أهلوه إليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ليأخذوه فى سيارة إلى مسقط رأسه فى بلدة توزر ، ولكن روح أبى القاسم أصرت على أن تلقى ربها فى المكان الذى أظل عمرها القصير عند باب الحومة .

* * *

وماذا كان من أمر أبى القاسم خلال هذه السنوات القصار التى عاشها فى شبابه ؟

من أسف أن ما وقعنا عليه من المعلومات عن هذه الفترة من حياة

الشاعر ليس بالكثير . ولكنه كاف كل الكفاية لإرشادنا إلى المؤثرات الكبيرة فى حياته وشعره .

من ذلك ، أنه قيل إن أبا القاسم أحب حبًّا عنيفاً عفيفاً ، وكان — كما أدركنا من قصيدته التى سقت أبياتاً منها — لا ينظر إلى محبوبته كما ينظر غيره من الرجال إلى محبوباتهم

لم يكن يتعمق فى أنوثتها ويستلهم جنسها ، وإنما كان يراها قصيدة أو أغنية ، أو هيكلا للعبادة ، أو محراباً للنور والطهر ، أو كعبة لسدنة الفن !

قال أديب تونسى : « إن حبًّا جارفاً باكر أبا القاسم ، فغمره وساقه فى موكب حافل من العواطف الجامحة والأخيلة الواسعة . ولكن الموت اختطف حبيبته ، فبكى أبو القاسم ، ورتل أناشيده العاطفية مرجعاً كل شىء فى حياته إلى الحب »

* * *

أما المؤثر الثانى فهو أن أبا القاسم كان مجدداً جريئاً صاحب دعوة تقدمية كبيرة فى الأدب الحديث .

وقد عكف على نشر آرائه فى تونس ، فى صحفها ومجلاتها ، وهى يومئذ بيئة شديدة المحافظة والتعلق بالقديم ، فى مجال الأدب وفى كل مجال من مجالات الفكر والحيـــاة ، فلقى حرباً شعواء ، ولقى عنتاً كثيراً ، ولقى حفائظ وأحقاداً تترى من كل فج ، حتى امتلأ قلبه — كما قال — باليأس من الشعب الذى يعيش فيه ، هامساً لنفسه « لا كرامة لنبى

فى وطنه » ، راثياً لهذا الشعب فى قصيدة عنوانها « النبى المجهول » وفيها يقول :

أيها الشعب ليتنى كنت حطاباً فأهوى على الجذوع بفأسى
أنت روح غبية تكره النور وتقضى الدهور فى ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون مس وجس
فى صباح الحياة ضمخت أكوابى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقت رحيقى ودست يا شعب كأسى
فتألمت ، ثم كفكفت آلامى ، وأسكت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى باقة لم يمسها أى إنسى
ثم قدمتها إليك ، فمزقت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً ، وبشوك الصخور توجت رأسى
هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ثم أنساك ما استطعت ، فما أنت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى وأفضى لها بأحزان نفسى
ثم أقضى هناك فى ظلمة الليل وأمضى عن الوجود ببؤسى

وهكذا فعل أبو القاسم ...

لقد صدق وعده وهجر الناس ، وذهب إلى الغاب ، وإلى الجبال والواح ، وعاش فى المنفى الأخضر الذى اختاره لنفسه ، يطل على البحر المتوسط ، ويرعى الأغنام ، وينفخ فى الناى ، وينظم الشعر ، بعد أن يئس من الناس إذ شنوا عليه حرباً عواناً وهو بسبيل رسالته المستحدثة

فى الأدب ، وهو إلى جانب هذا يبشر بين قومه بالحرية ، ويحرضهم على الثورة على الاستعمار والذود عن الحياض ، هاتفاً بهم فى قصيدته المشهورة « إرادة الشعب » التى يحفظ الملايين من العرب مطلعها بدون أن يعرف أكثرهم صاحبه :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القــدر
ولا بــد لليــل أن ينجلى
ولا بــد للقيد أن ينكسر

* * *

وهكذا اجتمع على أبى القاسم حب كبير (وإن كنا لا نجزم فيه بموت الحبيبة) وحرب من الجامدين ، واضطهاد من المستعمرين ...

وعلى نيران هذه الحروب الثلاثة ، احترق أبو القاسم إذ أصابه تضخم فى القلب ، فأسلم الروح وهو يغنى فى فرحة بالخلاص :

الوداع الــوداع يا جبــال الهمــوم
يا ضباب الأسى يا فجــاج الجحيم
قد جرى زورقى فى الخضم العظيم
ونشرت القــــلاع فالــوداع الــوداع

شاعر الشباب

أحمد رامى

فى أغسطس سنة ١٨٨٢ خرج أحمد رامى إلى النور ، فى بيت عتيق بحى الناصرية بالقاهرة ، وكان أبوه لا يزال يومئذ طالباً بمدرسة الطب .

ولد أحمد والنغم ملء أذنيه ، فهو يذكر فيما يذكر من خيالات الطفولة الأولى ، أن جماعة من أهل الفن والطرب ، كانت تلتقى دائماً فى مندرة بيت أبيه ، وأن أباه كان مشغوفاً بالفن .

فلما تخرج الأب فى مدرسة الطب ، اختاره الخديو عباس الثانى ليكون طبيباً لجزيرة طاشيوز ، وهى جزيرة صغيرة على مقربة من مدينة « قولة » مسقط رأس محمد على (وكانت يومئذ من أعمال تركيا ، وهى الآن من أعمال اليونان) وكانت هذه الجزيرة ملكاً خاصًّا للخديو عباس الثانى .

وإلى هذه الجزيرة ، ذهب أحمد مع أبيه ، وقضى بها عامين كاملين. ذهب وهو فى السابعة ، وعاد وهو فى التاسعة ، وتلك هى سن التفتح فى أخيلة الطفولة .

وهكذا تفتح خيال الشاعر على غابات اللوز والنقل والفاكهة ، والبحر والموج والشاطئ ، وكانت ملاعبه هناك بين مروج النرجس الكثيفة ... هذه المروج التى كانت من قبله ملاعب لهومير وغيره من شعراء اليونان .

وعاد رامى من هذا الفردوس إلى القاهرة .

عاد ، وقد وعى التركية واليونانية ، وهما لغتا أهل الجزيرة ، وما يزال يعى طرفاً منهما حتى اليوم .

عاد من الفردوس إلى اليباب ، فقد ترك أبويه هناك ، وأقام عند بعض أهله فى بيت يقع فى حصن المقابر ، بحى الإمام الشافعى ، فاستوحشت نفسه ، وانطوت على هم وأسى عميقين .

والتحق آنذاك بالمدرسة المحمدية الابتدائية بحى السيوفية .

فلما عاد أبوه من طاشيوز ، عادت الأسرة إلى بيتها العتيق بحى الناصرية . بيد أن المقام لم يطل بأبيه ، الذى التحق بالجيش ، وسافر إلى السودان وتركه فى رعاية جده وهو شيخ فى السبعين ، يسكن حى الحنفى (القريب من الناصرية) فعاودت أحمد الوحشة بعد إيناس ، لولا أن خففت حدتها على نفسه نافذة فى غرفته ، كان يطل منها على تخوم مسجد الحنفى ، ليستمع طول الليل إلى مجامع المتصوفة يتلون أورادهم ويرددون ابتهالاتهم واستغاثاتهم للمولى عز وجل فى نغم جميل .

وكان له قريب من بيت الرافعى ، وهو بيت علم وأدب وثقافة ووطنية . وكانت لقريبه هذا مكتبة عامرة ، أنس إليها أحمد ، فكان يقضى بها جل وقته . وكان أول كتاب سقط فى يده فقرأه وتشبع به وحفظه عن ظهر قلب ، هو كتاب « مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب » وكله مختارات من شعر العشاق الغزلين .

هذا الكتاب لعب دوره فى حياة أحمد وهو صبى ، فقد قرر مصيره إلى الأبد .

ثم قرأ فى هذه المكتبة .. قرأ كثيراً ... وكان قد أدرك مرحلة الدراسة الثانوية بالمدرسة الخديوية ، وتعلقت نفسه بحب الأدب ، وكانت هناك جمعية أدبية على مقربة مما يقيم بحى السيدة زينب ، اسمها « جمعية النشأة الحديثة » .

وكان فيها رواق للأدب مساء كل خميس ، تحضره جماعة من فحول ذلك الزمان ، منهم لطفى جمعة ، وإمام العبد ، وصادق عنبر ، ومحمود أبو العيون ، وطنطاوى جوهرى ، وغيرهم .

وتوسم المرحوم صادق عنبر فى أحمد الصغير خيراً ، وسمعه يتلو الشعر تلاوة طيبة ، فكلفه قراءة بعض الشعر القديم فى هذا الرواق الأسبوعى .

وواتته فى هذا الرواق فرصة سانحة ، قرأ فيها أول قصيدة من نظمه ، وكان يومئذ فى الخامسة عشرة .

* * *

تخرج رامى فى مدرسة المعلمين العليا ، سنة ١٩١٤ ، وعين مدرساً بمدرسة القاهرة الأهلية بالسيدة زينب ، وكان من زملائه فى التدريس بها ، الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد رحمه الله .

وبعد عامين ، عين بمدرسة القربية الأميرية ، يدرس للناشئة اللغة الإنجليزية والجغرافيا والترجمة .

وفى هذه الآونة – كان ذلك سنة ١٩١٨ – أصدر ديوانه الأول ، أو على الأصح ، الطبعة الأولى من ديوانه ، لأن لرامى طريقة فريدة فى نشر شعره ، ذلك أنه يراجع ديوانه فى كل حقبة من عمره ، فيتخير منه وينخل ويضيف ، ويعيد طبعه من جديد على الصورة التى ترضيه .

* * *

كان صدور ديوانه حدثاً أدبيًّا فى ذلك العهد ، فقد طالع قراء العربية بلون جديد فى الشعر ، اختلفت فيه المدرستان القديمة والحديثة يومئذ ، هذه تؤيده وتلك تلحاه ، .... هذه المعركة التى دامت فى حقل الشعر الحديث إلى عهد قريب .

وضاق رامى بالتدريس ذرعاً ، فعاد مرة أخرى إلى رحاب مدرسة المعلمين العليا حيث عين أميناً للمكتبة ، فاطمأنت نفسه وانصرف إلى حياة علمية خالصة ، وانكب على ما فى المكتبة من كتب فى آداب العالم الثلاثة ، من عربى وفرنسى وإنجليزى .

وهكذا ظل حتى سافر فى بعثة إلى باريس لدراسة اللغات الشرقية وفن المكتبات سنة ١٩٢٣ .

وفى باريس قضى عامين هما أسعد ذكريات شبابه ، فى جامعة السوربون ، وكأنه كان هناك على موعد مع شاعر التاريخ عمر الخيام كما سنفصل فيما بعد .

وعاد رامى بعد العامين إلى القاهرة حيث عين بدار الكتب المصرية وظل يتدرج فى مناصبها ثمانية وعشرين عاماً ، حتى أصبح وكيلاً لها ،

وقد جاوز الستين ومع هذا فإنه لايزال يلقب فى الصحف والمنتديات بشاعر الشباب .

وقصة هذه التسمية ، أنه كان فى أوليات أيامه ينشر شعره بمجلة الشباب ، لصاحبها المرحوم عبد العزيز الصدر ، الذى خلع عليه لقب شاعر الشباب نسبة إلى المجلة .

وبقيت التسمية عالقة برامى حتى اليوم .

* * *

مارس رامى ثلاثة ألوان من الأدب :

الشعر الوجدانى ، والعاطفى ، والوطنى .

ثم أدب المسرح ، فقد زود شاعرنا المسرح المصرى بذخيرة ضخمة تبلغ نحو خمس عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير الخالدة ، سهر على ترجمتها بأمانة وإشراق ، ومنها هملت ويوليوس قيصر والعاصفة وغيرها مما قدمته مسارح يوسف وهبى وفاطمة رشدى فى زمن غرة المسرح .

ثم انتهى إلى نظم الأغنيات ، وبهذا اشتهر وطار ذكره ، حتى أوشك الناس أن ينسوا رامى شاعر الفصحى ، ورامى كاتب المسرح ، ولم يذكروا إلا شاعر الأغانى .

* * *

أحب أن أتحدث عن رامى كأديب شعبى ...

وقد يفرض علينا هذا التحديد ألا نتناول شعره الخالص ، مما لا يدخل

فى نطاق الشعبية . بيد أن الناقد لا يستطيع أن يتناول الناحية الشعبية فى رامى إلا إذا درس نفسية هذا الشاعر عن طريق شعره .

تفاعلت فى نفس رامى ، منذ طفولته إلى آونة نضجه ، عوامل عدة ، أبهرها تلك المروج الفيحاء من النرجس ، التى تفتح عليها خياله فى جزيرة طاشيوز ، ثم تلك الوحشة التى ألمت به بين القبور ، ثم تلك الصوفية التى عاشرت روحه فى حى الحنفى ، ثم ذلك الكتاب الذى كان أول ما قرأ « مسامرات الحبيب فى الغزل والنسيب » .. ثم صحبته لشاعر التاريخ عمر الخيام . ثم كلفه بأم كلثوم .

هذه فيما أرى ، هى العناصر التى اشتركت فى تكوين هذا الشاعر وجعلته مجموعة من الانفعالات العاطفية التى تسيل تشوقاً وتصوفاً وعذوبة ورقة .

وقد ثارت فى وقت من الأوقات حملة من حملات النقد تقسم الأدب إلى بابين : باب القوة وباب الضعف . وقيل يومئذ إن شعر رامى بما فيه من لهفة على الحب ، وما يزخر به من دموع وتأوهات ، ينهض نموذجاً لأدب الضعف .

وهذه قولة سخيفة ، لو أننا أخذنا بها لجعلنا أخلد الشعر العاطفى فى التاريخ من أدب الضعف . وإنى لأرى أن الضعف ليس هو الذى يمتلئ بالعاطفة ويلتهب بالحرقة على الحبيب ، وإنما أدب الضعف هو ذلك الذى يسوق اللفظة السقيمة أو المعنى الواهى أو الخيال الممجوج.

وإنى لأرى أن أدب القوة ، ليس هو الذى يتحدث عن الجهاد

والجلاد والقلاع والحصون بغير عاطفة ، وإنما أدب القوة هو ذلك الذى يكون مصدره القلب ومنبعه الوجدان ، وثوبه اللفظة الحلوة والمعنى الشاهق .

وأدب رامى ، على هذا القياس الصحيح، أدب قوة لا أدب ضعف ، لأنه أدب صدق ، مستمد من أعماق نفسه ، ومن روحات خياله ، ومن شوامخ ثقافته .

وصحيح أن أدبه حافل بالأنين ، غارق فى الدموع ، ولكن ماذا تطلب منه ، وهذه حياته كلها تشوف ووحشة وأنين والتياع ؟

أمن العدل أن نطالب شاعراً هذه حياته ، بأن يحدثنا عن السيف والدم؟

إن الشاعر الصحيح هو الذى يجعل شعره صورة لحياته ومرآة لنفسه .

فاستمع إلى رامى يحدثك لماذا كان شاعر الدموع ، فى قصيدة عنوانها « شعر الدموع » :

يقولون ما هذا الشحوب الذى نرى ... بوجهك ، بل ما هذه النظرات ؟
فقلت لهم إنى دفنت نضارتى ... وقد ضربت فى قلبى الظلمات
تشرد لحظى ، ثم غشته ترحة ... كما غشيت شمس الضحى المزنات
لقد كان براقاً وقد كان ضاحكاً ... فراح بريق اللحظ والضحكات
وما العين إلا باب قلبى ترونه ... أفيه بكاء أم به بسمات ؟

* * *

كانت أم كلثوم حدث الأحداث فى حياة رامى .

كانت قدراً عليه ، غير طريق حياته .

عاد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأغانى المصرية يومئذ قد بلغت حضيض الإسفاف والانحلال ، مثل أغنيات « أرخى الستارة اللى فى ريحنا . . أحسن جيرانك تجرحنا » و « إيه اللى جرى فى المندرة . . شىء ما اعرفوش . . دانا كنت لسه صغيره » و « تعالى بات . . يوم التلات » . . و « إوعى تكلمنى . بابا جاى ورايا» و« شفتى بتاكلنى أنا فى عرضك » . . . إلخ .

عاد رامى من باريس ، وسمع هذه الأغانى ، وسمع شقيقاته ، وهن لم يزلن يومئذ صغيرات السن مدللات الصبا ، يرددن هذه الأغانى كما حفظنها من الحاكى ذى البوق الذى كان شائعاً فى تلك الأيام ، فعزّت عليه تلك الجناية على أخلاق الجيل ، وهو الذى سمع فى باريس روائع الشعر الغنائى ، كما سمع فى مندرة أبيه من قبل بدائع غنائيات الجيل الأسبق ، جيل مصطفى نجيب وإسماعيل صبرى والشيخ الليثى وأترابهم .

وتشاء المصادفة أن يزوره فى هذه الآونة صديق له ، ويدعوه إلى سماع المغنية الناشئة القادمة من الريف ، تغنى فى جوسق فى الهواء الطلق بحديقة الأزبكية ، بلا أوركسترا ولا تخت !

كان اسمها : أم كلثوم .

وكان هذا فى يومه الثالث فى القاهرة ، بعد عودته من باريس ، وتاريخه : ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٤

وراح ليسمع ، فإذا هى تطالعه بمفاجأة حياته .

إنها تغنى قصيدة له هو بالذات ، مطلعها :

الصب تفضحه عيونـــه وتنم عـــن وجد شؤونه

وكان اللحن لخير من لحن القصائد، المرحوم الشيخ أبو العلا محمد .

ورجع رامى من عندها فى تلك الليلة مأخوذاً بحلاوة الصوت وبراعة الأداء ، ولم ينم ليلتها إلى الصباح .. فقد أزمع أمراً .

لقد عرف أنه وجد الأداة الكفيلة بتحقيق الرسالة الكبرى ... الانقلاب العظيم فى الأغانى المصرية .

وكان لم يزجل إلى ذلك اليوم. ولكنه وجد نفسه مسوقاً إلى أم كلثوم، يصلح لها طقاطيقها القديمة ويهذب ألفاظها .

ثم زجل ... زجل فى أول مقطوعة نظمها خصيصاً لها وهى :

خايف يكون حبك لـــى شفقـــة علـــى

وانتى اللى فى الدنيا ديـــه ضـــى عيـــنى

ونشرت هذه الأغرودة فى أسطوانة طبعت سنة ١٩٢٥ ، فكانت حدثاً فى الغناء المصرى .

واتصلت حياة رامى منذ يومئذ بحياة أم كلثوم .

وقد شهد الزجل الغنائى لأول مرة فى تاريخ الفن المصرى ، بحور الشعر تستخدم فيه جميعاً ، ومعانى الشعر تؤم ، وأخيلة الشعر تعمم، والألفاظ الشاعرية الرقيقة تنزل إلى ميدان الزجل الغنائى لأول مرة على يد رامى .

شاعر مملكة النحل

أحمد زكي أبوشادي

أبولّو ، مرحباً بك يا أبولّـــو
فإنك من عكاظ الشعر ظـــلُّ
عكاظ وأنت للبلغـــاء سوق
على جنباتها رحلـــوا وحلّـــوا
وينبوع من الإنشاد صـــاف
صدى المتأدبين به يبـــــل

هذه الأبيات الثلاثة هى مطلع القصيدة الرائعة التى نظمها أمير الشعراء شوقى فى تحية جمعية «أبولّو»... أول جمعية أنشئت لخدمة الشعر العربى الحديث سنة ١٩٣١ .

وكان منشئها هو الشاعر الذى نعته الأنباء من أمريكا فى سطور قليلة لم تجد صداها إلا عند نفر قليل من ذاكرى فضل هذا الرجل : أحمد زكى أبو شادى .

وقد نشرت هذه التحية الشوقية بالعدد الأول من مجلة «أبولو» التى أصدرها أبو شادى يومئذ لتنطق بلسان الجمعية ، وتنتظم خرائد الشعراء المعروفين ، وتكشف عن المواهب المغمورة فى مصر والسودان والمشرق والمغرب العربيين والمهجر الأمريكى ، وتولى النقد الأدبى عنايتها بأسلوب علمى مستحدث .

وقد استطاعت هذه الجمعية التى أسندت رياستها إلى أمير الشعراء

ثم من بعده إلى شاعر الأقطار العربية خليل مطران، أن تستحدث ثورة فى عالم النقد، وأن تنشئ مدرسة جديدة فى الشعر العربى الحديث، تسمو برسالة الشعر عن أن يكون أداة للمدح أو للقدح أو المناسبات، وتجرده من التقليد ، وتنادى بوحدة القصيد ، وتحلق فوق الذرى العالمية .

وفى هذه المدرسة ، لمعت أسماء خالدة فى سماء الشعر العربى، كإبراهيم ناجى وعلى محمود طه و م . ع . الهمشرى وأبو القاسم الشابى والتيجانى يوسف بشير ، من الراحلين ، وعشرات غيرهم من الأحياء . كما لمعت فى عالم النقد أسماء أخرى أخص بالذكر منها الدكتور رمزى مفتاح الذى أثار معركة من أكبر معارك الأدب فى ذلك الجيل بكتابه « رسائل النقد » .. والأديب العراقى الراحل الدكتور مصطفى جواد .. وغيرهما .

* * *

والشاعر أبو شادى ، هو ابن المجاهد الكبير المغفور له محمد بك أبو شادى ، الذى كان من أساطين الوفد فى عهد سعد ، ومن زعماء الحركة الوطنية والثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وكان إلى جانب هذا شيخ المحامين فى عصره .

وفى حياة شاعرنا كل ما نراه فى شعره من هيام بالجمال .

كان كل جمال يلهب شاعريته . ولكن القصتين اللتين عاشتا فى قلبه إلى أن لقى وجه ربه ، هما اللتان أرويهما هنا .

ولدت القصة الأولى فى يوم يتمه ، أو بعد ذلك بقليل ، حين ودعت أمه الدنيا ، فتزوج أبوه سيدة من بيت معروف . وكانت لها ابنة من زوج سابق .

كان الشاعر يومئذ فى ميعة الصبا ، طالباً بمدرسة الطب .

وذاق لوعة فقد أمه ، وضاعفت اللوعة قسوة زوجة أبيه عليه . ولكن بارقة من الحنان هدهدت قلبه ، ومسحت دمعه ... هى تلك الصغيرة التى أشرقت على حياته فى البيت ... ابنة زوج أبيه . كانت طفلة شاعرية حالمة ، إذا تحدث إليها ، أصغت إليه واستجابت له ، واستلهمها فألهمته .

وأترك لك أيها القارئ أن تتصور قسوة الصراع فى هذا البيت ، وفى هذه النفس ، وأنت تتأمل صبيًّا شاعر الروح ، فى حيرته بين قسوة هذه السيدة عليه ، وحنان ابنتها عليه !

أو أن تتأمل ما يعتمل فى نفس الصبية الحلوة ، وهى تحب أمها ، وتحب شاعرها ، ولكنها حائرة بينهما إذ هما فى هذا الصراع .

وتزداد قسوة الموقف ، حين تعلم زوج أبيه بأمر هذه العاطفة المشبوبة بين الصغيرين ، فتثور ثورة طاغية ، وتصر على ألا يبقى الصغير فى البيت .

ويحار أبوه ، بين عاطفته نحو ولده وبين إرضاء زوجه فيحاول أن يحول دون اطراد هذه العاطفة ، على غير طائل ، فلا يجد مخرجاً من الموقف إلا بأن يوفق بين رغبة زوجه وحرصه على مستقبل ولده

بإخراجه من مدرسة الطب فى مصر ، وإيفاده لاستكمال دراسته فى إنجلترا ، لعله ينسى مأساته العاطفية هناك .

* * *

ذهب الشاعر الشاب إلى إنجلترا ، فلم ينس ، بل ازدادت الوقدة فى قلبه ، ولكنها كانت وقدة واعية حملته على مضاعفة جهده والتحصيل والاستيعاب ، حتى بزّ أقرانه من الإنجليز ، وفاز بمرتبة الشرف فى البكتريولوجيا

وكانت غاية هذا الجهد أن يظفر بشهادته ، ليعود مسرعاً إلى الظفر بليلاه فى القاهرة .

ولكن الأقدار رسمت غير ما رسم ، فقد جاءه النبأ الذى كان يصفه دائماً بأنه أكبر نازلة فى حياته .

لقد تزوجت ليلاه ...

ولم يطق الشاعر احتمال هذا النبأ بعد عناء هذه السنين ، فتمثلت له القاهرة ظلاماً يائساً ، وقر رأيه على أن يختار لنفسه المنفى ، واستقرت به النوى فى « أيلنج » من ضواحى لندن ، حيث أنشأ معملا بكتريولوجيًّا ، وظل هناك موزع القلب بين عمله وألمه .

وفى غمرة هذا اليأس ، انتابه السقم وعدا عليه الهزال . ولكن يداً رقيقة حانية ، امتدت إليه تجفف عرقه وتمسح دموعه ... هى يد شابة إنجليزية كريمة امتلأ قلبها بالعطف عليه ، وما لبث هذا العطف من ناحيتها أن أصبح جسراً عاطفيًّا إليه ، فأحبته وأولته كل جميل .

أما هو ، فقد أحس بهذا الحنان الذى حرمه منذ عهد طويل ، فلم يملك بإزائه إلا رد الجميل ، فطلب يدها ، فامتدت إليه راضية .

وعاد بها إلى مصر ، وسكنا بيتاً هادئاً فى ضاحية المطرية ، ورزق منها ثلاثة : رمزى (وهو الآن موظف بسكرتيرية الأمم المتحدة بنيويورك) وصفية ، التى أخذت عن أبيها شاعريته ، وقد أصدرت ديواناً من القصائد الشعرية فى واشنطن حيث تقيم (وتعمل بالسفارة . السعودية) وهدى ، التى تطوعت للعمل ببحرية الولايات المتحدة عقب صدمة عاطفية ، ثم تزوجت طبيباً بحرياً أمريكياً ، وقد اختيرت منذ سنوات ملكة جمال للبحرية الأمريكية .

* * *

عرفنا من نواحيه حتى الآن أنه شاعر وطبيب بكتريولوجى .

وبقى بعد هذا أن نتبين نواحيه الأخرى . . .

كان أبو شادى صحفياً متعدد الجوانب ، يصدر خمس مجلات فى وقت واحد ، والأعجب من ذلك ، أن كل مجلة من هذه الخمس ، كان لها لونها الفريد البعيد كل البعد عن الأخريات .

كانت أولاها « أبولو » للشعر ...

وكانت الثانية « مملكة النحل» لسان جمعية النحالين المصريين . وقد كان أبو شادى ملكاً لمملكة النحل فى مصر ، ورائداً من رواد النحالة فى العالم بأسره ، وله فى هذا الباب جهود ضخمة وبحوث كثيرة أشهرها بحثه الذى دعا فيه إلى تحويل واحة سيوة إلى محطة عالمية للنحالة

تغل للثروة القومية دخلاً لا يقل عن عشرة ملايين من الجنيهات كل عام !

وكان يحاول أن يحبب هذه المملكة إلى أصدقائه الشعراء ، ويعرفهم على أخلاقها ، ومن أبرز آثاره فى هذا المسعى ، قصيدة أمير الشعراء الرائعة فى وصف مملكة النحل .

والمجلة الثالثة هى « الدجاج » لسان جمعية الدواجن المصرية ، وقد كان من كبار المربين للدواجن العالمية ، ودعاة استجلابها وتربيتها فى مصر . وكانت فى حديقة بيته بالمطرية مزرعة للدواجن الفاخرة إلى جانب النحل .

والمجلة الرابعة « الصناعات الزراعية » لسان جمعية الصناعات الزراعية المصرية ، التى بشرت بدعوة التصنيع الزراعى فى مصر .

والمجلة الخامسة هى « الإمام » التى أصدرها خصيصاً لرفع راية الأدب الشعبى فى مصر . وكان محررها الأساسى فى أول عهدها هو الأديب الشعبى الراحل ، محمود بيرم التونسى .

كان بيرم يومئذ فى باريس ، منفياً من مصر ، مغضوباً عليه من القصر ، لأنه طعن الملك فؤاد فى عرضه ، وطعن فاروق فى نسبه ، ولكن أبا شادى جعله المحرر الأول لمجلة « الإمام » بالمراسلة ... غير مبال بما يجر عليه هذا الاختيار من سخط القصر ورب القصر ورجال القصر .

ومما يجمل ذكره فى هذه المناسبة أن أبا شادى هاجر إلى أمريكا

قبل ثورة الجيش بعدة سنوات ، ولكنه أخذ نفسه برسالة الأحرار قبل قومهم بجيل من الزمان .

ومنذ يومه الأول فى أمريكا ، راح فى الصحف العربية التى تصدر هناك يهاجم الملك والإقطاع والأحزاب وفساد الحكم فى مصر ، ويدعو إلى الثورة ... الثورة التى تحققت بعد ذلك بأربع سنوات .

على أنه لم ينقطع عن رسالته الأدبية هناك ، فقد أجال قلمه فى صحيفة « الهدى » العربية التى كانت تصدر فى نيورپورك ، وفى غيرها من الصحف ، وفى إذاعة صوت أمريكا . تحدث كثيراً عن مصر وعن الأدب الجديد ، وعن الإسلام ، واستحدث نشاطاً أدبيًّا ضخماً بين أدباء المهجر الأمريكى .

ولما قامت ثورة يوليو . حاول عارفو فضله أن يردوه إلى مصر ، ولكن المرض كان قد أثقل عليه ، وكان أولاده قد نظموا حياتهم على المقام هناك ، فاستسلم للمنفى إلى أن لقى وجه ربه فى ١٢ أبريل سنة ١٩٥٥ .

أمير الشعراء

أحمد شوقي

شارع من أقصر شوارع مصر ... لا يمتد إلى أكثر من بضع خطوات فى ضاحية الجيزة ، هو كل ما خلدنا به ذكر أعظم شاعر فى تاريخ مصر .

إنه شارع « أحمد شوقى بك » ... الشاعر الذى مال كما تميل الشمس فى ضحاها ، يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

هناك ... تقوم « كرمة ابن هانئ » على رأس الطريق ، مطلة بحديقتها ونوافذها وشرفاتها على صفحة النيل الخالد ، كأنها تسائله بلسان ربها الراحل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟
وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت ؟ أم فُجِّرت من
عليا الجنان جداولا تترقرق ؟

* * *

هذه كرمة ابن هانئ .. مهبط الوحى على أمير الشعراء . وعندما زرتها لآخر مرة فى سنة ١٩٦٠ ، كانت روحه الخالدة لا تزال مرفرفة هناك فى كل غرفة ، ولاتزال منه قطعة عزيزة فى كل ركن .. وأعزها من بقية الأسرة هناك ، هذه العقيلة الكريمة المعتكفة فى ركن من الحديقة أكثر أيامها ، تصلى فى محراب الذكريات .

هذه السيدة الجليلة ، عقيلة شوقى ، سليلة بيت ذى تراث عتيد من تقاليد تركيا القديمة والشرق والإسلام ، فرسالتها فى الحياة ، أنها زوجة وأم وربة بيت ، ولا صلة لها بعدئذ بالشعر ، إلا صلتها بالشاعر كزوج ، ولا صلة لها بالدنيا إلا بالبيت الذى يؤويها لاتفارقه ، وأقصى حدود دنياها باب هذا البيت ؟

وكانت هذه الكريمة — يوم زرت الكرمة لآخر مرة — فى رعاية ولدها حسين الشاعر الرقيق الذى غنى له عبد الوهاب من شعره قصيدة مرهفة مطلعها :

سهرت منـــه الليـــالى ما للغـــرام ومـــالى

والناثر الأنيق ، صاحب « صديقى رينان » و « أبى شوقى » .

وأما ولدا شوقى الآخران ، على وأمينة ، فقد غادرا البيت منذ زمان طويل ، ليبنيا بيوتاً أخرى تضم أكباد أكباد أمير الشعراء .

* * *

شوقى .... اتهمه خصومه بأنه تركى ، لا مصرى ولا عربى .

وهذه تهمة فى أكثرها باطلة ، إن صح يكون نسب المرء ، الذى لا دخل له فيه ، تهمة عليه .

فشوقى — كما يقول بنفسه فى مقدمة الطبعة الأولى من الشوقيات — ينحدر من جد عربى ، اختلطت به بعد ذلك فروع تركية وكردية وجركسية ويونانية . فهو كأكثرنا نحن المصريين ، مزاج لطيف من عناصر الشرق والشعر . فإن نحن أنكرنا عليه مصريته ، فإنما ننكرها

على أكثر المصريين وأشرفهم مصرية ، وأصدقهم وطنية ، ولست أعرف مصريًّا صميماً قال مثلما قال شوقى فى مصر :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

فهذا الشاعر الذى ينازعه الشوق إلى مصر وهو فى الخلد ، لا يجوز أن يتهم فى مصريته .

* * *

أما الأرقام والحقائق فى حياته ، فى عجالة ، فهى أنه ولد بحى الحنفى بالقاهرة سنة ١٨٦٨ (وقيل ١٨٧٠) ، والتحق بمكتب الشيخ صالح ، ثم بالمدرسة الخديوية ، ثم بمدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب سنة ١٨٨٧ ، وعاد منها سنة ١٨٩١ ، ونفى إلى أسبانيا سنة ١٩١٥ ، وعاد منها سنة ١٩١٩ .

فإن شئت مزيداً من قصة نشأته فهو ابن أبيه « على شوقى » وكان « على » قد ورث عن والده مالا كثيراً بدده فى سكرة الشباب ، ويقول شاعرنا فى ذلك « ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم .. وكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل ، ألا أقتات من فضلات الموتى » !

وأخذته جدته لأمه تكفله .

ودخلت به يوماً على الخديو — وكانت من معتوقاته — وهو فى الثالثة من عمره . وكان بصره لا ينزل عن السماء ، فطلب الخديو بدرة من

الذهب ، ونثرها على البساط عند قدميه فوقع الطفل على الذهب يتطلع إليه ، ثم يجمعه ويتلهى به ، فقال الخديو بجدته « اصنعى معه مثل هذا ، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض » !

قالت السيدة الذكية : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك ؟ فقال لها : « جيبى » إلىّ به متى شئت ، فإنى أعز من ينثر الذهب فى مصر » .

ويبدو أن جدته لم تذهب به كثيراً إلى هذه الصيدلية ، فقد عاش شوقى ما عاش ، يحلق فى السماء بعينين رجراجتين زئبقيتين لا تقران على قرار ، حتى كان الشيخ على الليثى كلما رآه ذكر من قول المتنبى هذا المصراع « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » .

* * *

لم يسجل التاريخ للخديو توفيق شيئاً من الإحسان فى تاريخ هذا البلد . فقد كان ضعيفاً خائر العزم ذليلاً للمستعمر . ولكنى أحب أن أسجل لتوفيق حسنة واحدة .. حسنة يتيمة فى حياته .. تلك هى أنه اشترك فى إعداد شاعرية شوقى ، فقد أحسن جزاءه بعد تخرجه فى قسم الترجمة بمدرسة الحقوق ، وأوفده فى بعثة إلى باريس ، وأمره أن يبقى هناك أربع سنوات حظر عليه أن يعود خلالها إلى مصر ، وأمره أن يقضيها بين النظر فى آداب الغرب ، وحياة الناس هناك ، والتنقل بين مونبلييه وباريس ولندن وغيرها من الحواضر .

وهناك تفتحت عينا شوقى على ألوان من الجمال فى الحياة والآداب

والفن ، فتفتق خياله ، وتفتحت له آفاق جديدة ما كانت لتتفتح له لو بقى فى مصر ، شاعراً ناشئاً يعيش فى إسار القصر ، وكل رسالته فى الحياة أن يرفع مدائحه للأعتاب الخديوية .

* * *

هذه حسنة توفيق اليتيمة ...

والحسنة الأخرى ليست له ، وإنما هى للإنجليز ...

حسنة من حيث لا يقصدون . ذلك أنه عقب خلع عباس الثانى وقيام الحرب العالمية الأولى ، تنكر الناس لشوقى شاعر العهد الذاهب والعزيز المخلوع ، وتحاشوه ، وقلّ زوار الكرمة الذين طالما قضيت لهم فيها حاجات ومطالب .. ويقول حسين شوقى :

« بل صار الأصدقاء يخشون لقاء أبى كى لا يتهمهم أحد عند الإنجليز أو عند السلطان الجديد بمصاحبة أحد رجال النظام الجديد .. مسكين أبى .. تألم لهذه الحال ! لذلك قابل بارتياح حكم السلطة العسكرية فى ذلك الوقت حينما كلفته مغادرة الوطن سنة ١٩١٥ » .

وذهب شوقى إلى منفاه . .

وعندما غادر محطة القاهرة ، لم يكن فى وداعه إلا قلة من الأقارب والأصدقاء ، حتى لقد شكر المنفى . . الأندلس .. التى أزاحت عنه غمة هذا الجحود ..

فقال :

شكرت الفلك يوم حويت رحلى
فيا لمفارق شكر الغرابـــــا
فأنت أرحتنى من كل أنف
كأنف الميت فى النزع انتصاباً
ومنظر كل خوان يرانى
بوجه كالبغى رمى النقابــا
وليس بعامر بنيـــان قـــوم
إذا أخلاقهم كانت خرابـــاً

* * *

وهناك ... فى ظلال إسبانيا ... قضى شوقى خمس سنوات ، رأى فيها عوالم جديدة ، وراجعته قصة الأندلس والمجد العربى الذاهب فيها ، وقصص ملوك الإسلام الأقدمين وحكاياتهم هناك ، ومفاتن الشعر العربى فى الأندلس ، بألوانه الزاهية وبحوره المغردة وأوزانه الراقصة ...

كل هذا لعب فى شاعرية شوقى دوراً جديداً وأضاف إلى قيثارته أوتاراً حبيبة .

* * *

وكانت الكأس أولى هواياته ..

وحدثنى رامى — وكان قريباً إليه — قال :

إن شوقى كان خبيراً بالأنبذة، يتخير أجودها ويجتذب بها أصدقاءه إلى مائدته ، لأن شوقى كان لا يعود إلى بيته بعد جولة الصباح إلا وقد

صحب معه صديقاً أو أكثر من صديق ، يشاركه فى غدائه .

وكانت له حانات مأثورة فى القاهرة ، أشهرها « صولت » و « لابروميناد » و « دلبانى » . والأخيرة كانت تقوم عند ركن خارجى من مبنى فندق سميراميس الحالى ، وكان أمامها موقف للعربات ذات الجياد .

قال رامى : « وكنا نجلس عند دلبانى ، فيرشف شوقى رشفة من كأسه ثم ينسل فى هدوء ، فيركب عربة تدور به حول الجزيرة ، ثم يعود فيملى علىّ عدة أبيات .. ورشفة أخرى . . ثم دورة أخرى حول الجزيرة ... ثم عدة أبيات أخرى . . ولا تنتهى الليلة إلا بقصيدة قد تتجاوز مائة بيت » !

هكذا كان الشعر مطواعاً له ، لا يكلفه نظمه أقل عناء ، إلى حد أن قصيدة « النيل » وهى من خير قصائد حياته ، بل لعلها فى الطليعة من الشعر العربى كله — وقوامها ١٥٠ بيتاً — نظمها أمير الشعراء فى ليلة واحدة !

* * *

هل فى الحياة إنسان لم يعرف الحب ؟

فما بالك إذن بشاعر .. بل بأمير الشعراء ؟

ومع هذا ، فإنك تقرأ ما تقرأ مما كتب الكتاب عن شوقى ، فلا تستطيع أن تهتدى إلى امرأة بالذات ، لعبت دوراً فى حياته العاطفية .

وتقرأ ما تقرأ من شعر شوقى ، فترى فيه للغزل نصيباً ، وإن لم يكن

،وفوراً ولا محرقاً ، فإنه سلسال أنيق .

ولكن الذى يحيرك دائماً أن غزليات شوقى لا ترسم صورة واضحة المعالم لامرأة معينة فى قلبه .

وأسأل ولده حسيناً : « ألا تعرف لأبيك قصة غرام ، فحرام أن يحرم التاريخ من الوقوف على مثل هذه القصة ؟ » .

فيجزم حسين بقوله : « بكل أسف، إنه لم يحدثنا طول حياته بشىء من ذلك ، مع كثرة تبسطه معنا فى كل شىء » .

وأذهب لألتمس الحقيقة من أصحابه الذين عاشروه ، فلا أهتدى إلى جواب ناصع . ويقول لى رامى : لقد تحدثنا فى هذا مرة ، فقال لى (مالك تصنع بنفسك هكذا يا رامى ؟ تنقل بين هوى وهوى ، وخذ من كل حسن معناه ، وكن كالعصفور الذى لا يستقر على غصن واحد . فإن النساء معان ، فلا تقصر نفسك على معنى واحد) ...

ومصداق هذا القول واضح فى شعر شوقى .

سئل مرة أيهما يؤثر فى الخمر ، الويسكى (ولونه يميل إلى الصفرة) أم الكونياك ، (ولونه يميل إلى الحمرة) ؟ فردد بيتاً له من قصيدته المشهورة « رمضان ولى » :

حمراء أو صفراء ... إن كريمها

كالغيد ... كل مليحة بمذاق !

وهكذا ترى أنه يردد نفس المعنى الذى قاله لرامى ، ويؤثر أن يتذوق كل لون من ألوان الجمال ، ولا يتقيد بمليح واحد .

ويضيف رامى أن شوقى كان يفضل السمراوات ذوات القسمات المصرية ، الضامرات فى غير سقم ، الشاحبات فى غير ضعف .

* * *

وقد لقى شوقى فى حياته حرباً كثيرة ...

لقى حرباً من طه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، وعبد الرحمن شكرى وأنصارهم جميعاً .

ثم لقى حرباً رخيصة من أصحاب الصحف الصغيرة طمعاً فى ماله .

سمعت من المرحوم أحمد فؤاد صاحب جريدة « الصاعقة » ... الملقب بفؤاد الصاعقة .. أنه كان كلما أعوزه المال ، أوفد إلى شوقى رسولا يخبره بأن فؤاد الصاعقة سوف يهاجمه .

وكان شوقى يفزع من النقد ، فكان إذا سمع هذا ، أوفد إلى صاحب الصاعقة من ينفحه بما شاء من المال ليسكت عنه .

ومع هذا كان فؤاد الصاعقة يعبد شوقى ، ويحفظه عن ظهر قلب ، كما كان يحفظ ثلاثين ألف بيت على الأقل لغيره من أعلام الشعر العربى .

ولقى شوقى كذلك حرباً عواناً من بعض الصحف الكبيرة ، لظروف قاسية شتى ، منها صلاته الوثيقة بالقصر ، وخصومته فى بعض الآونة لسعد زغلول ، وصلة المصاهرة التى ربطته بإسماعيل صدقى ، وكان الكتاب يومئذ يخلطون بين الأدب والسياسة ، ولا يفرقون بين شوقى

الشاعر وشوقى صهر إسماعيل صدقى .

* * *

وقد ذكرت بعض أسماء أحب أن أعود إليها فى قصص لا يجوز إسقاطها من حياة شوقى :

بطرس غالى :

كان ذا يدٍ على شوقى . رثاه رثاء لم ينس فيه حساب الوفاء ، ولانسى حساب الوطن .

قتل بطرس غالى بيد الوردانى ، بعد موقف معروف فى قضية مصر ، وفى قضية قناة السويس بالذات . فثار بعض إخوتنا الأقباط ، وأوشكت الفتنة أن تضطرم والفرقة أن تكون ، فقال شوقى فى قصيدة طويلة :

بنى القبط إخوان الدهور رويدكم
هبوه يسوعاً فى البرية ثانيا
حملتم لحكم الله صلب ابن مريم
وهذا قضاء الله قد غال غاليا
تعالوا بنا نطوى الجفاء وعهده
وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تكن مصر مهدنا ثم لحدنا
وبينهما كانت لكلٍّ مغانيا ؟
ألم نك من قبل المسيح ابن مريم
وموسى وطه نعبد النيل جارياً ؟

فهلا تساقينا على حبه الهوى
وهلا فديناه ضفافاً وواديا ؟
ومازال منكم أهل ود ورحمة
وفى المسلمين الخير مازال باقيا

هذه الشوقية غير المشهورة ، أعدُّها من أجلّ الأعمال الوطنية فى تاريخ مصر الحديث .

سعد زغلول :

كانت هناك جفوة بين شوقى وسعد فى بعض الآونة . ولكن تقدير كل من الرجلين للآخر لم يتأثر بهذه الجفوة فى يوم من الأيام . بل إن كلاًّ منهما كان يطوى صدره على ودّ كامن للآخر ، تحول دون إظهاره قسوة الظروف .

فإن أردت مصداقاً لهذه الحقيقة ، فحسبك أن تعرف أن سعداً ، يوم زفاف على بن شوقى ، أجل البرلمان ساعة كاملة ليحضر الحفل .... وهذا شىء لا نظير له فى تاريخ البرلمانات .

وحينما ذهب ، وجلس مع شوقى ، أخذت لهما صورة معاً .

وقال الأستاذ الجديلى ، وهو يومئذ سكرتير سعد : « هذه صورة الخالدين » .

فابتسم سعد ، وأشار إلى شوقى قائلا : « هنا الخلود » !

وخرج سعد ، فقال شوقى : « حقًّا إنه لزعيم حائز لكل صفات الزعامة. قيل له : « وما صفاتها ؟ » قال : « أن يكون الزعيم على بسطة من العلم والجسم ، قويًّا على نفسه ، جريئاً فى الحق ، خبيراً بمختلف الشؤون السياسية والقانونية ، قويًّا وليس بقاس ، رحيماً وليس بضعيف ، خطيباً قوى الحنجرة ، حسن البيان والإلقاء ، يقدر الكبير من أعوانه ، ولا يجرح صغيرهم ... وقبل ذلك أن يكون حسن الوجه ، فلم يرسل الله نبيًّا قبيح الخلقة قط » !

* * *

ويجرنا ذكر سعد إلى حديث عن شقيقه فتحى زغلول .

كان فتحى زغلول شيئاً غير سعد .

وحسبنا من أمره أنه كان قاضى دنشواى ، وعون الإنجليز على شهدائنا .

وحين رقى إلى منصب وكيل الحقانية (العدل الآن) مكافأة له من الإنجليز على أحكامه فى قضية دنشواى . أقام له الوصوليون حفلة تكريم فى فندق شبرد (القديم) ودعوا شوقى إلى أن يساهم فى الحفلة بقصيدة ، فظل يسوفهم ، ويسوفهم إلى أن استيأسوا ، فإذا بهم يفاجأون بظرف يصل إلى شبرد قبل بدء الحفلة بلحظات ، وبداخله هذه الأبيات :

إذا ما جمعتم أمركم وهممتمو
بتقديم شىء للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرءوه فى شبرد « بل اقرءوا
على ملأ فى دنشواى حزين

وشوقى هو شاعر الدنيا .....
وهو شاعر الفراعنة والعرب . .
وهو شاعر الأقباط والمسلمين ..

كانت مصر ، بكل ما يحفل به ماضيها ، وما يجتازه حاضرها ، وما يؤمل لمستقبلها ، أقوى مادة للإلهام عنده .

وملحمته الخالدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » التى ألقاها فى المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد فى مدينة « جنيف » فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ كممثل للحكومة المصرية ، من أروع الملاحم فى تاريخ الشعر العربى جملة ، فهى تروى قصة مصر بكل ما عبر بها من أحداث منذ عهد الفراعنة إلى ذلك الحين (١٨٩٤) رواية مفصلة جرى فيها على روىّ واحد من الشعر فى غير تكلف ولا افتعال ، إلى أن وصل إلى ثلثمائة بيت .

وقد لج به هوى مصر ، أكثر ما لج ، إذ هو فى منفاه بالأندلس ،

حيث كان شعره يذوب حنيناً ويتحرق شوقاً إلى مصر وهناك قال هذا البيت :

وطنى لو شغلت بالخلد عنـه
نازعتنى إليـه فى الخلـد نفسى

* * *

وكان الاستعمار فى عصر شوقى لا يدخر جهداً فى الإيقاع بين المسلمين والأقباط ، حتى يحق له البقاء بخيله ورجله بدعوى حماية الأقليات

ولقد نجح الإنجليز حيناً من الدهر فى هذه الوقيعة ، فكان هناك إيثار لطائفة يثير حفيظة الطائفة الأخرى ، وكانت هناك مؤامرات يدبرها المستعمر لتحقيق غايته ، وإقامة دعواه فى البقاء باسم حماية الأقليات ، وهى أرخص ما اخترع الإنجليز من التحفظات الأربعة المشهورة فى تصريح ٢٨ فبراير ، حتى قام سعد زغلول ، فقضى على حجتهم وأبطل دعواهم إلى الأبد .

وفى خلال هذه المؤامرات ، كان شوقى يتغنى بالمسيح بن مريم ، ويقرن ذكره دواماً بذكر محمد بن عبد الله ، فينزل قوله برداً وسلاماً على قلوب المصريين أجمعين .

ويشاء الإله الواحد ، إله المسلمين والأقباط ، أن يجىء عيد الهجرة مع عيد الميلاد فى وقت واحد ، فى أحد أعوام الفتنة ، فيهتف شوقى :

عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا
يتباريان وضاءة وجمالا

ميلاد إحسان وهجرة سؤود

قد غيرا وجه البسيطة حالا

ثم يتحدث عن فتح الترك للقسطنطينية وتحويل « أيا صوفيا » من كنيسة إلى مسجد ، مما قد تتبلبل معه خواطر متعصبة ، فيقول شوقى فى دعوة جميلة إلى السماحة :

كنيسة صارت إلى مسجد

هـــدية السيد للسيد

ومرة أخرى . .وبطرس غالى يومئذ عزيز الأقباط فى مصر ، وقد أقيم له حفل تكريم لم يفت شوقى أن يبادر إلى الإسهام فيه ..يصيح أمير الشعراء صيحة صدق فيقول :

يا بنى مصر لم أقل أمة القب

ط ، فهذا تشبث بمحال

واحتيال على خيال مـــن المج

ـد ، ودعوى من العراض الطوال

إنما نحن مسلمين وقبطـــاً

أمة وحّدت على الأجيـــــال

سبق النيل بالأبوة فينـــا

فهو أصل ، وآدم الجـــد تال

هكذا يهتف شوقى بأن التفرقة ، حتى فى مجرد النداء ، تشبث بالمحال ويرى أن النيل وشيجة العنصرين قبل محمد والمسيح ، وقبل آدم نفسه .

ثم ها هو ذا يتحدث عن ميلاد المسيح ودخول المسيحية إلى مصر فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى
والمروءات والهدى والحياء
ازدهى الكون بالوليد ، وضاءت
بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يسـ
ـرى من الفجر فى الوجود ضياء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام
لا حسام ، لا غزوة ، لا دماء
إنما ينكر الديانات قوم
هم بما ينكرونه أشقياء

* * *

وهو على شدة اعتداده بإسلامه ، يرى مصر ديناً مع الدين ، وأخشى أن أقول إنه يراها ديناً قبل الدين ، كما تشهد بذلك أبياته التى قالها حينما ثارت الفتنة بين المسلمين والأقباط فى مصر عقب مصرع بطرس غالى ، والتى سقتها من قبل .

وقصيدته فى النيل هى من خير مصرياته ، وهى تربو على مائة وخمسين بيتاً ، تجرى فى أروع النغم وترسم أجمل الصور ، ويستهلها بقوله :

من أى عهد فى القرى تتدفق　　وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من　　عليا الجنان جداولا تترقرق

وفيها يقول عن النيل فى لفتة روحية مشرقة يسوغ فيها تأليه الفراعنة للنهر الواحد :

دين الأوائل فيك دين مروءة　　لم لا يؤله من يقوت ويرزق
لو أن مخلوقاً يؤله ، لم تكن　　لسواك مرتبة الألوهة تخلق

ومع أن هذه القصيدة هى أجمل مدحة للنيل فى تاريخ الأدب العربى ، فإن من آيات العبقرية وجزالة الإلهام عند شوقى ، أنه أنجزها كلها فى ليلة واحدة كما أسلفت القول .

* * *

وكان مسلماً شديد الاعتزاز بإسلامه ، ويصل به شعره الدينى إلى مراتب المتصوفة ، كابن الفارض والبوصيرى ، من الناحية الروحية ، وإن تجاوزهم فى الناحية الشعرية إلى درجة أعلى ونفس أجمل .

ومن أروع إسلامياته ، همزيته النبوية التى يستهلها بقوله :

ولد الهدى فالكائنات ضياء　　وفم الزمان تبسم وثناء

وقصيدة « إلى عرفات » ... ومعارضته الرائعة لنهج البردة ، التى لها بقوله :

م على القاع بين البان والعلم　　أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

ره يجب أن نتلفت إليه فى شعره الدينى ، أنه لم يفته — فى غمار تصوفه —
ان يتحدث إلى أبناء وطنه فى شؤون حياتهم وما يجب أن يشرق عليها

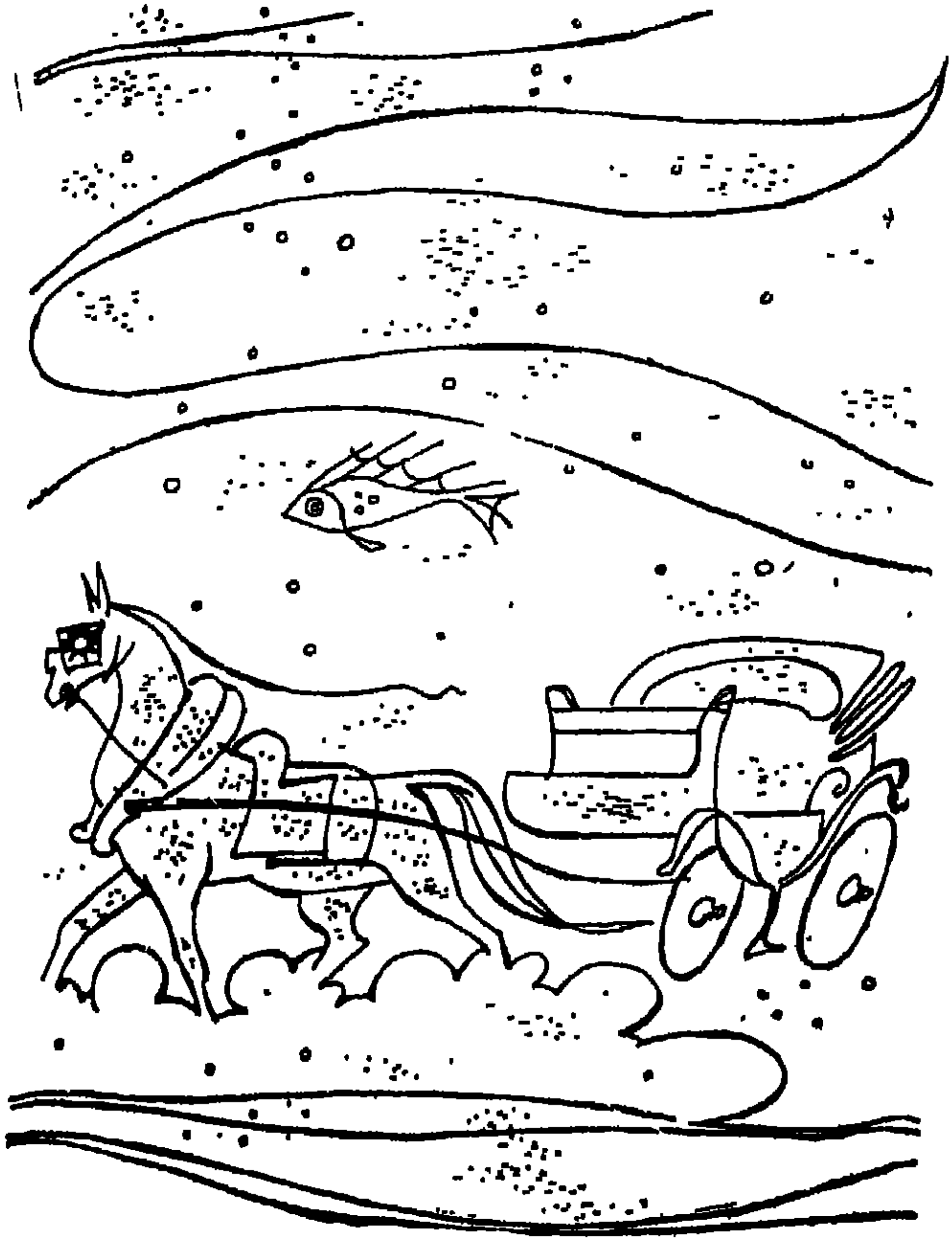

من روح الإسلام ، من تحلٍّ بالفضائل . وزهد فى عرض الحياة الزائل ودعوة إلى الخير والبر ، وتبشير بالعدالة الاجتماعية كجزء من رسالة الإسلام . ومما يجعل لهذه اللفتة الرائعة قدرها ، أن شوقى قد سبق إليها الزمن ، وبشر بها قبل ثورة ١٩٥٢ بأكثر من جيلين ، وجاهر بها فى عنفوان طاغوت الملكية والإقطاع .

يقول شوقى فى الهمزية النبوية ، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام :

الإشتراكيون أنت إمامهم   لولا دعاوى القوم والغاواء
داويت متئداً وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواءالداء

إلىأن يقول :

أنصفتأهلالفقرمنأهلالغنى   فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنساناً تخير ملــة   ما اختار إلا دينك الفقراء

ومع هذا ، يكن شوقى بالمسلم المتعصب الذى يحميه غلوه فى الدين عن تقديس المسيح عليه السلام ، والإشادة بدعوته إلى الحب والسلام .

عروبته :

وشوقى هو شاعر الشرق العربى ، بمجموعة دوله .

لقد أسهم شعره فى الثوراتالعربية ، وفى دعوات الحرية بها ، وفى تسجيل أحداثها وتكريم أبطالها ، وقد أحسن القول فى نفسه حين قال فى الحفلة التى عقدت له جميع الشعوب العربية فيها البيعة لإمارة الشعر :

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق ... وكان العزاء فى أحزانه

فهو يبكى مع أهل الشام فى نكبة دمشق ، فى قصيدته المشهورة :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وهو يتغنى بجمال لبنان فى قصيدته عن زحلة :

شيعت أحلامى بقلب باك ولمست من طرق الملاح شباكى

إلى أن يصل إلى ذروة الغنائية قائلا :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هواك وفى الكرى والذكريات صدى السنين الحاكى
ولقد مررت على الرياض بربوة غناء كنت حيالها ألقاك
ضحكت إلىّ وجوهها وعيونها ووجدت فى أنفاسها ريّاك

ويحيى شهيد ليبيا ، عمر المختار ، بقوله بعد استشهاده :

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم ، نصبوا مناراً من دم يوحى إلى جيل الغد البغضاء

عالميته :

ويتسع قلب شوقى للإنسانية جمعاء ، وتتلفت شاعريته إلى كل ركن من أركان العالم ، فهو يخلد عبقريات شكسبير وتولستوى وفيكتور هوجو وفيردى ونابليون وأرسطو وابن زيدون . وهو يذرف الدموع على ضحايا الانقلاب العثمانى ، وضحايا زلزال طوكيو ويوكوهاما ،

وعلى ضحايا الحروب والمظالم والطبيعة وشهداء الحرية فى كل مكان .

* * *

حبه للحياة :

وكان شوقى يحب الدنيا ، ويأخذ نصيبه منها ، تشهد بذلك خمرياته ، ووصفه للجعة هذا الوصف الرائع :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب
أو دوائر دور مائج بها لبب[1]
أو فم الحبيب جلا عن جمانه الشنب[2]
أو يداه ، باطنها عاطل ومختضب
أو شقيق وجنته[3] حين لى به لعب
راحة النفوس ، وهل راحة عندها تعب
يا نديم خف بها لا كبابك الطرب
لا تقل عواقبها فالعواقب الأدب

ثم فى قوله فى قصيدة (رمضان ولى) ... وقد ترجمت جريدة

---

(١) اللبب : موضع القلادة فى الصدر (٢) الشنب : حلاوة الأسنان
(٣) الشقيق : واحدة شقائق النعمان ، زهور حمراء .

(الطان) بعض أبيات هذه القصيدة واحتفت بها على صفحاتها :

رمضان ولى ، هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألاّ فها وأقله فى طاعة الخلاق

إلى أن يقول :

هات اسقنيها غير ذات عواقب حتى تراع لصيحة الصفاق
صرفاً مسلطة الشعاع كأنما من وجنتيك تدار والأحداق
حمراء أو صفراء ، إن كريمها كالغيد ، كل مليحة بمذاق

* * *

مسرحياته :

لم يعرف العرب فى تاريخهم فن التمثيل كما عرفه المصريون القدامى فى معابدهم ، ولا كما عرفه اليونان والرومان بعد ذلك فى مسارحهم .

فالتمثيل فى بلادنا العربية فن مستحدث ، نستطيع أن نحدد بدايته حين بدأ مارون النقاش محاولاته الأولى فى التأليف والتمثيل المسرحى فى بيروت ، ثم انتقلت هذه المحاولات وصاحبها ومن نسجوا على منواله إلى مصر ، وبدأ عهد من التأليف المسرحى المزيل ، ثم تبعتها حركة لترجمة روائع المسرح الأوربى إلى اللغة العربية نثراً، ثم نظماً صالحاً للغناء مما تطلبته حاجات المسرح الغنائى الذى نشأ فى مصر فى الربع الأول من هذا القرن .

ثم كانت المسرحية الزجلية التى قاد زمامها عثمان جلال ، واعتمد فيها على الاقتباس ، كما صنع فى مسرحيته « الشيخ متلوف » المقتبسة من مسرحية « تارتوف » لموليير .

ولم يعرف المسرح العربى المسرحية الشعرية متكاملة المقومات إلا حينما نزل شوقى إلى ميدانها سنة ١٩٢٧ ، وكان إلمامه الواسع بالأدب الفرنسى ولياليه الطويلة فى مسارح باريس وهو يطلب العلم هناك أيام شبابه ، ولاسيما مسرح الكوميدى فرانسيز ، وما شاهد على خشبته من روائع كورنى وراسين وموليير ... كان كل هذا عدته فى الإقدام على هذه الخطوة الرائدة فى تاريخ المسرح العربى ، وفى تاريخ الأدب العربى جملة ، فكتب مسرحياته « مصرع كليوباترا » و« على بك الكبير » و« قمبيز » و« مجنون ليلى » و« عنترة » و« أميرة الأندلس و« ملهاة » الست الهدى التى تميزت بلون جديد ، هو المحلية ، والروح المصرية المرحة ، واللغة المصرية الفصحى ، أى اللغة السهلة التى لا تخرج عن حدود القاموس العربى ، مع تطعيم يسير ببعض الألفاظ والتعبيرات القاهرية بحيث يستسيغ القصة كلها ويستوعبها كل قارئ أو مشاهد ، سواء أكان من الخاصة أو العامة .

وإذا كانت حرفية المسرح فى هذه الروايات تعرضها لناحية من النقد فى بعض المواقف ، فإن روعة الشعر وانسياب الموسيقى وضخامة الموضوع ، تطغى على أكثر هذا النقد ، وتضع هذه الأعمال فى مكان حفى من تاريخ الأدب العربى .

وقد تغنى شوقى ، من خلال الحوار الشعرى فى هذه المسرحيات ، بالحب العفيف فى « مجنون ليلى » ، وبالعاطفة والبطولة فى « عنترة » وبحرية مصر وكفاحها ضد الاستعمار فى « مصرع كليوباترا » « وعلى بك الكبير » و « قمبيز » وبأمجاد العرب فى « أميرة الأندلس » وبنقد المجتمع فى « الست هدى » .

* * *

وقبل أن ننتهى من هذه الكلمة عن شوقى ، ينبغى لنا أن نقول إن عصر النهضة فى تاريخ الشعر العربى فى العصر الحديث، الذى بدأ بمحمود سامى البارودى ثم إسماعيل صبرى ، كان فى يد القدر بعد هذين العلمين ، لولا أن أتاحت العناية لهذه النهضة عبقرية شوقى العملاقة التى جددت قوى الشعر ، واستحدثت مدرسة لاتزال مزدهرة كل الازدهار ، ولايزال مريدوها وتلاميذها والمتأثرون بها هم شعاعات هذه النهضة حتى اليوم .

شاعر الكرنك

أحمد فتحي

لم يعرف عامة الناس هذا الشاعر ، أحمد فتحي ، قبل أن يغني له عبد الوهاب أنشودة الكرنك ... كما لم يعرفوا صاحبه علي محمود طه قبل أن يغني له عبد الوهاب ما غنى له من أغاريد عذبة ، منها « الجندول » و« كليوباترا » و« ليالي كليوباترا » .

وإذا كان الغناء يمنح الشعر كل هذا القدر من الذكر وبعد الصيت فإن الشعر يرد الجميل مضاعفاً ، ويمنح الغناء قدراً أكبر من الخلود ، بدليل أن هذه الأغنيات الشعرية التي ألفها أحمد فتحي وعلي محمود طه ، لاتزال تجري على ألسنة الناس بعد أن مر عليها عقدان أو أكثر من عقدين من الزمان ، على حين أن عشرات ومئات من الأغنيات الدارجة التي يغنيها أعلام الغناء تموت على ألسنة الناس قبل أن ينصرم من عمرها نصف العقد أو ما دونه . وهذا وجه من وجوه شرف الفصحى على الدارجة .

* * *

منذ مائة سنة أو أكثر قليلا ، شدت أسرة من بطون الجزيرة العربية ، اسمها أسرة فايد ، رحالها للهجرة إلى مصر بغاية الإقامة فيها لأمر لا نعلمه .

رحلت الأسرة ومعها خيامها إلى أن حطت بها في رمال الصحراء بمحافظة الشرقية ، عند موضع يقال له « كفر الحمام » حيث نصبت

خيامها المصنوعة من الشعر – شأن البدو – وانتشرت فى تلك البقعة من الأرض ، ومازالت بها تعالجها بالفأس والماء حتى جعلت منها قرية زراعية خصيبة ذات بيوت من الطين كسائر بيوت ريف مصر .

من هذا البيت ، وفى هذه القرية النائمة على حافة الصحراء ، نشأ الشيخ إبراهيم سليمان ، أبو شاعرنا أحمد فتحى إبراهيم سليمان .

وكان الشيخ من علماء الأزهر ...

وكان ينظم الشعر ، وقد شارك بمنظومه الملتهب فى ثورة سنة ١٩١٩ ، واشتهر عنه أنه كان ينظم المظاهرات الوطنية فى الإسكندرية مستعيناً بزملائه وتلاميذه ، إذ هو شيخ للمعهد الدينى هناك ، وقد زج به فى السجن وتعرض بيته لغارات الشرطة أكثر من مرة .

وقد تزوج الشيخ أكثر من مرة ، ومن إحدى هذه الزيجات خرج شاعرنا إلى النور فى اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٩١٣ .

ولهذا كان الشاعر كلما ألمت به ملمة ، وذكر هذا التاريخ فى تشاؤم قال : ألست من مواليد سنة ١٣ .. ؟

تطيراً بالرقم الذى يقال إنه مشئوم .

* * *

قضى الشاعر طفولته موزع القلب بين الإسكندرية ومسقط رأسه ية كفر الحمام .

ولما شب عن الطوق ، التحق بالمدرسة الابتدائية فى الإسكندرية ، ثم تجاوزها إلى المدرسة الثانوية .

وماتت أمه وتركته طفلا لم يجاوز العاشرة بكثير ... ثم مات أبوه وهو ابن خمسة عشر عاماً ، فتعثر فى دراسته ، وبدأ يلتقى بالشيطانين : شيطان الشعر وشيطان الحياة .

* * *

لم يرث الشاعر عن أبيه شيئاً من الإرث إلا وسامته وعينيه الزرقاوين وسجية الشعر ..

ومنذ تلك السن المبكرة — الخامسة عشرة — عقد الشاعر مع الشيطان صداقة عجيبة ، لعبت أكبر دور فى حياته — كما فعلت بالدكتور فاوست — حتى هدمته وحطمته .

منذ تلك السن المبكرة بدأ يمارس لذاته الحسية ، ويصاحب الكأس ، فلم يستطع أن يظفر بشهادة « الكفاءة » على تواضعها .

وكفله خاله بعد موت والديه ، فحاول تقويمه ، على غير طائل ، فألحقه بمدرسة الفنون التطبيقية — وهى يومئذ مدرسة صناعية متوسطة — فلبث بها حتى تخرج فيها سنة ١٩٣٠ ، وعين موظفاً بجمرك الإسكندرية .

* * *

وتنتقل الوظيفة بشاعرنا من جمرك الإسكندرية إلى التعليم الفنى ، فيشتغل مدرساً بمدرسة الصناعات بالسويس . وفى هذه الفترة يبدأ اتصاله بالحياة الأدبية ، يراسل مجلة « أبولّو » ... التى كانت تصدر عن جماعة « أبولّو » للشعر فى تلك الآونة .

ويتردد كثيراً على القاهرة ، ويتعرف إلى شعرائها وأدبائها ومحافلها

الثقافية ، ويخوض معاركها الفكرية ، فترى له فى مجلة «أبولّو» مقالا عنوانه «فى معنى الانتحال» يهاجم فيه العقاد وأصحابه ، ويأتى بشواهد على نظر العقاد فى شعر سابقيه وسطوه على معانيهم ...

* * *

وتكتب لقمة العيش على أحمد فتحى أن يذهب إلى الأقصر ، مدرساً بالمدرسة الصناعية ، فلا يستطيع أن يغرق همومه فى النيل أو يؤقلم روحه ويروضها على التصوف فى معابد الأقصر الخالدة ، فقد غلبته لذات الحس فى ذلك الجدب ، فملأته حنيناً إلى القاهرة وكل ما فى القاهرة من متاع .

ومن يدرى ... لعله لو لم يذهب إلى الأقصر ولو لم يستوح هذه الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة ، ما عرف الناس شيئاً من أمره ، ولا سمعوا بيتاً من شعره .

على أن كل أجره عن هذه القصيدة لم يزد على ثلاثة جنيهات تقاضاها من الإذاعة فى ذلك العهد .

وبعد نجاح أنشودة الكرنك ، وما أضفت عليه من ذيوع صيت ، نظم أنشودة أخرى بعث بها إلى عبد الوهاب ، مستشفعاً بكثير من كبراء العهد ، ومنهم الدكتور طه حسين ، والمرحوم محمد سعيد لطفى . بيد أن عبد الوهاب أتعبه وأضناه .

فلما أوشك أن ييأس منه ، اتجه إلى أم كلثوم وتوجه إليها بأنشودة عنوانها «نداء الغروب» وهى من وحى وادى الملوك ... :

ولكنها غضت الطرف هى الأخرى يومئذ، فلم يجد مناصاً من أن يشيع أغانيه على ألسنة الصف الثانى من أهل الغناء ، فنظم عشرات الأغانى بالفصحى والدارجة، ولكن أغنية منها لم تشتهر ولم تصب من الحظوة عند الناس بعض ما أصابت أنشودة الكرنك .

* * *

وعادت لقمة العيش تحمله من الأقصر إلى الفيوم ، وتقربه إلى إلى حبيبته : القاهرة .

ومنذ طفولتنا ونحن نسمع ذلك الموال الشعبى العذب ونشجى له :

سبع سواقى بتنعى لم طفوا لى نار ...

وكنت أحسبها أسطورة لا وجود لها ، هذه السواقى السبع التى تنعى ، إلى أن رأيتها فى ربوع الفيوم حقيقة واقعة رائعة .

ورأيت حولها عيون « السليين » وعيون « الفديمين » و « الحدائق المعلقة » و « بحيرة قارون » وغير ذلك من آيات الطبيعة الساحرة ، وكأن هذه البقعة من أرض مصر قد اغتصبت من بقية مصر نصيب الأسد من السحر والشاعرية .

وقد عاش رامى فترات من شبابه فى هذا الفردوس ، وكانت له فيه قصة حب سجل مراحلها فى أكثر من قصيدة من شعره العذب ، أخص بالذكر منها قصيدة « ريفية الفيوم» التى مطلعها :

نشأت فى منابت التين والزيتون .... فى ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عـــذب سلسبيل من مسكه المختوم

سمعنا هذه القصيدة العذبة من رامى فى مطالع شبابنا ، فى أول الثلاثينات ، وكان أحمد فتحى يؤم بعض مجالسنا فى عهد جماعة « أبولّو » ويسمع هذه القصيدة ويفتن بها .

وهكذا علقت بخياله صور حاوة للفيوم كما رسمها رامى. منابت التين . . وهادلات الكروم . وبحر يوسف . . . وسواقى المدير .

فلما كانت نقلته إلى الفيوم سنة ١٩٤١ — مدرساً بالمدرسة الصناعية — تفاءل خيراً وكتب إلى صاحبه أنور أحمد يقول له :

« السواقى تكاد تطغى على نداءات خواطرى وأنا أكتب لك ، ومع هذا فإنه لنواح حبيب ياليتنى أستطيع أن أسجله فى أبيات كما سجله رامى فى قصائد » .

بيد أن الحرب كانت قائمة يومئذ ، وقد نجحت الدعاية البريطانية فى اجتذاب الشاعر إلى جانبها بما أغدقت عليه — عن طريق أغانيه وأحاديثه فى الإذاعة البريطانية — من دخل أعانه على يسر الحياة وأسباب المتعة ، فانغمس فيها ، ووجه شعره إلى التنديد بالمحور ونصرة الحلفاء . . . ومن ذلك قوله :

جن بعض الشعوب واختلط الأمر . . . عليهم فى فتنة واغترار
نقضوا الموثق الذى أبرموه أمس بين الخصوم والأنصار
ومشوا فى البقاع تيها وعجبا واستباحوا فى الأرض كل دمار
فى اعتداد بقوة زعموها لحديد قد أعتدوه ونار
كفروا بالسلام والحق والخير . . . فويل للمعشر الكفار

هكذا قال الشاعر.. وكأنما الحلفاء لم يكونوا هم الآخرين كفاراً بالسلام والحق والخير .

وهكذا اتخذ أحمد فتحي موقفاً من معركة الحلفاء والمحور. وسواء أكان موقفه هذا عن إيمان أو عن غير إيمان، فقد زج به لسوء حظه ، فى تيار لم يستطع أن يرجع عنه فيما بعد ، إلى أن قذف به ، بعد مرحلة الفيوم ، إلى ميدان الحرب فى الصحراء الغربية ، بعيداً عن وطنه ، ضابطاً فى قوات الحلفاء ، يلبس كسوة ضباطهم وهو يشعر بالخجل منها .

* * *

ماذا حدا بشاعرنا إلى هذه النقلة السوداء ؟

إنه يفسر لنا نازعة النفس التى قذفت به إلى الصحراء فى إحدى رسائله الشجية ، فيقول :

« أنت تدرى أننى رجل لا سبيل للمال إلى استمالته . ولكن .... حدث أننى سعيت إلى الشهرة سعى المجد ، وطلبت المجد طلب الملحاح ، وبذلت فى سبيل ذلك ما بذلت من نضرة شبابى ونور عينى .

« فلما بدأ نجمى يتألق فى سماء المجتمع ، وأقبلت على الشهرة إقبال المشوق ، كان ما تبقى فى النفس ذماء لا يكاد ينتفع بالحياة فى جملتها ولا فى تفصيلها .

« فقدت نصف قلبى منذ ثلاثة أعوام ، وفقدت نصفه الباقى منذ أيام .... و :

صار جدًّا مالهوت بـــــه   ربّ جدّ جرّه لعــب

« ولقد فزعت إلى الشراب من مواجعي وعذاب دنياى »، فما زادنى إلا ضعفاً عن احتمال الحياة ومواجهة متاعبها ، وعادت علة الجسد تزيدنى من يقظة جراح قلبى ، وأصبحت حياتى كلها مقاساة ونكداً .

« وتلفت حولى ، فإذا أنا ... ولا ناصر ولا معين . . وإذا مثلى كمثل الكسرة من الخبز العفن ، ملقاة فى عرض الطريق ، إن وجدت نقياً يرفعها إلى جانب الحائط ، فإنها لن تجد من يأكلها بأية حال .

« قلت لنفسى : لعلنا نصطنع لنا وطناً جديداً وعملا جديداً وآفاقاً جديدة ، يرتع فى ظلالها الإحساس الجريح والخيال مهيض الجناح ، ولعل تغيرّ الجو المحيط وتبديل الوسط وتجديد المعالم ... لعل ذلك كله أن يعين على صفحة الماضى بخيره وشره ، بل بشره وحسب ، فما كان فيه من خير قط .

« وفى بضعة أيام أبرمت الأمر ، وعقدت العزم على الرحيل ، لم أشاور أحداً ولم أستأنس برأى أحد ، بل استخرت الله فى المضى ، وحضرت رحلى أطياف الشباب من أمانى شاحبة غامت فى عبرات الأسف على ما ضاع من صحوة العمر ونضرة الشباب ، ورحلت وأنا لا أدرى إلى أين ؟»

« ولست أدرى حتى الساعة ماذا يراد بى ، فإن كان خيراً فقد أسلفت من الصبر والتجمل ما يثبت حتى فى أن أنعم بما بقى لى فى صحبة الحياة من أحد ، وإن كان شرًّا ، فقد :

تعودت مس الضر حتى ألفته وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر

* * *

« ولكن شر ما أكابد الآن – فى برقة – هو هجر شيطانى الصادح الذى طالما هششت إلى هزجاته بين تجهم أيامى وفى أمسياتها العابسة ، فما عدت أهتف ببيت من الشعر ، ولا عاد يطرقنى طيف من أطياف الخيال » .

* * *

والواقع أن شيطان أحمد فتحى لم يحسن صحبته بعد تلك الفترة ، فقد عاد شاعرنا من الصحراء الغربية بعد حين ، بعد أن خلع حلة الجيش البريطانى ، ولجأ إلى صاحبه المرحوم محمد سعيد لطفى – مدير الإذاعة يومئذ – وقد كان على صلات طيبة بالإنجليز ، فتوسط للشاعر عندهم ، فعينوه مذيعاً ومترجماً للأخبار بالإذاعة البريطانية بلندن ، فى فترة مظلمة ظالمة . تكاثرت فيها القنابل الطائرة على العاصمة البريطانية .

وذهب أحمد فتحى إلى لندن ، ولكنه لم يحسن صحبة من حوله ، ولم يتخل عن بوهيميته التى لا تقيده بموعد ، وتجعل موعد الحب قبل موعد العمل .

وهكذا ضاقوا به ... فلم يجد بداً من الاستقالة فى يونية سنة ١٩٤٦ ، أى بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعام .

وحاول أن يبقى فى لندن ، كمراسل لبعض الصحف المصرية ، ولكن مراسلة الصحف لم تقم بأوده ، فحاول أن يمارس التجارة . ولكن متى كانت تجارة الشاعر رابحة ؟

على أن لندن قد حملته ذكرى ظل يدمع لها بقية حياته .

فقد أحب هناك ...

أحب شابة إنجليزية اسمها « كارول » ... وهى من بنات الطبقة المتوسطة ، وكانت تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة ، وتزوجها ، ورزق منها طفلة أسماها جوزيفين .

وكان قد تعود أن يفرط فى الشراب ، فلا يفيق منه ، وهكذا لم يستطع أن ينهض بتكاليف الحياة الزوجية . وجاءه النذير حينما رفضت السلطات الإنجليزية أن تجدد إقامته هناك ، فكان عليه أن يرحل ، ويترك زوجته وابنته خلف ظهره ، ويبحث عن أى مصير .

وقد أتيح له فى أثناء عمله فى الإذاعة البريطانية أن يتعرف على كثير من الشخصيات العربية التى كانت تتردد على لندن ، ومن بينها الأمير عبد الله الفيصل ، وهو يومئذ شاب فى مثل سن شاعرنا ، وهو كذلك شاعر ، وله ديوان اسمه « محروم » .

ولعل صاحبنا شكا للأمير الشاب حاله ، ولعل الأمير لمس ما فى شاعرنا من مواهب قادرة ، فوعده بتهيئة عمل له فى الإذاعة السعودية .

وصدق الأمير وعده ، وعاد شاعرنا إلى القاهرة ، وتأهب للسفر إلى السعودية .

وهناك ... أقام حينا متردداً بين عمله الإذاعى والاشتغال بالمقالات ولكن الأرض المقدسة ضاقت به ضيق الأرض غير المقدسة .. أرض الإنجليز ... فلم يلبث أن عاد إلى مصر ... ليعيش على عمل صحفى

طوراً ، وعلى صلة يصله بها صاحبه الأمير تارة ، إلى أن ودع الحياة وهو فى غيبوبة ثمالة ، وحيداً فى غرفته بالفندق ، فى اليوم الرابع من يوليو سنة ١٩٦٠ .

* * *

مات أحمد فتحى دون أن ينال أى نصيب من الدنيا وعلى شفتيه وهم خلود يهمس للناس :

ماذا أفدت بأشعارى وروعتها   سوى علالة تخليد لآثارى
وما الخلود بمأثور لعارية   غير الحسيسين من ترب وأحجار

المتنبّي الجديد

إلياس فرحات

هناك قرية تنجب العباقرة . . .

اسم هذه القرية «كفرشيما» بلبنان . . .

ومن هذه القرية ، خرج آل اليازجى ، خير من خدموا اللغة العربية . . . وآل شميل . . . من خيرة من رعوا الثقافة. . . وآل تقلا . . من أقدم من أنشأوا الصحافة .

ومن قرية العباقرة خرج المتنبي الجديد إلياس فرحات .

* * *

وحياة إلياس قصة من أجمل قصص الكفاح . . . فقد نشأ الصغير فى كفر شيما ، ودخل المدرسة ليتعلم ، فلم يقم بها إلا بضعة أيام خرج بعدها إلى الكفاح من أجل الرزق ، يحترف التجارة ، أويقشش الكراسى ، أو يربى الدجاج والحملان .

وفى فترات فراغه . . . يقول الشعر العامى .

ومن الشعر العامى تدرج إلى الشعر العربى ، بدون أن يعرف ما هو النحو ولا ما هو الصرف ، ولا ما هو الوزن ولا القافية .

وبهذه البضاعة المفلسة من العلم ، نزح إلياس من لبنان إلى البرازيل .

ولم يطلب العلم بعد ذلك فى مدرسة ، وإنما طلبه فى الجامعة الكبرى . . جامعة الحياة :

لـئن كنت لم أدخل المدرسات صغيراً ، ولابعد هذا الكـبر
فـذا الكون جامعة الجامعات وذا الدهـر أستاذها المعتبر

* * *

وكان فى جعبته يوم هجرته شىء يعتز به ، كأنه قطعة من قلبه : خصلة شعر من فتاة من بنيات كفر شيما ، أحبها ، ولكنها زفت إلى غيره بسلطان الأهل والمال ، قال فيها :

خصلة الشعـر التى أهديتنيها عندما البين دعـانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيهـا وسأتلوها إلى اليوم الأخـير

* * *

خنت عهد الحب ... لابأس ، فإنى مكتف بالأثر الغالى الثمين
فإذا ما عدت أحيـا بالتمـنى بعد أن منيتنى عشر سنـين
أحمد الله ... فما الاخلاف منى إننى كنت لك الصب الأمين
راجعى سيرة حبى .. راجعيها فهى نور ساطع للمستنـير
وإذا مرت بك الريح سليهـا إنها تعـرف من أمرى الكثير

* * *

وإلياس شاعر غزل ، وشاعر كأس ، فهو خيامى كبير .

ولا أستطيع أن أترك الحديث عن غزله قبل أن أعرض هذه الأبيات التى تسيل رقة وعذوبة ، وعنوانها « تعال » :

حبيبى ... تعال تجد مـنزلك معداً كما كان من قـبل لك
تعال . . . فما احتل قلبى سواك وغيرك فى خاطرى ما سـلك

تعال فهذا بساط الربيـع يوشي بأزهـاره مخمـلك
تعـال أنظر النيرات اللـواتى تغرين لما لبسـن الحـلك
فلـولاك لم تبـد هذى النجوم ولولا ك ما دار هـذا الفلك
حبيبى تعـال ادن منى فـكم حسدت النسيم الـذى قبلك
تعال ارفـع اليأس عن مدنف إذا لم تبـادر إليه هـلك
تعال أشهد النزع ، نزع الذى سوى دمعة الوجد لن يسألك
تعال ابك صبا يحـولى ولـولا وداع الحيـاة لما استعجلك
أموت عـلى رشفة مـن لماك فيا أكـرم الناس ما أبخلك

* * *

الفكرة الشائعة أن هؤلاء المهاجرين من ربوع العروبة إلى أمريكا ، قد راحوا فوجدوا الذهب منثوراً على الأرض ، وما عليهم إلا أن يلموه .

وهذا حديث خرافة . وحياة إلياس فرحات هى مثل حزين من أمثلة الكفالح من أجل الرغيف فى المهجر .

فقد بدأ إلياس حياته هناك يربي الخنازير ، فتدهورت أسعارها ، فتعلم تنضيد حروف المطبعة ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع صاحب المطبعة .

فراح يصنع بيديه الأطعمة الشرقية ويتجر فيها ، فلم يصادف رواجاً .

وأخيراً . . . حمل الكشة (وهى صندوق من الزنك) على ظهره وطاف بالقرى والكفور يبيع مساطر التجار (أى عيناتهم) لحسابهم .

وعشرون عاماً عبرت به وهو فى هذا الكفاح المرير ، يصفها فى

قصيدة لعلها أجمل قصائد حياته ، اسمها « حياة مشقات » .

* * *

لازم النحس إلياس منذ ميلاده حتى بلغ الثلاثين . . ويروى صاحبه توفيق ضعون ، الذى استضافه فى بيته حقبة من الزمن ، هذه الحكاية :

« لقد أصبح فى منزلى الحقير غرفة معروفة باسم غرفة فرحات ، وأصبح أصدقائى أصدقاءه ، ولكنا كنا جميعاً فقراء .

« وفى سنة ١٩١٨ ، حلت به النكبة الكبرى باحتراق طرف ثوبه ، فتشاورت مع شريكى جورج حسون فى أمره ، وقررنا أن لامخرج له من مأزقه إلا بالعمل . ولكنه لم يكن يصلح لأى عمل تجارى ، فاخترنا له عملا أدبيًّا ، فيكون ممثلا لمجلتنا « الدليل » ومراسلا لها فى الداخلية ، يجمع الاشتراكات من أطراف الولايات .

« ولكن كيف يقوم بهذه المهمة السامية دون رداء لائق يلبسه ؟

« لذلك كان أول ما فعلناه أننا حصلنا على بدلة بألف وخمسمائة قرش ، يرتليها معجلا ، وندفع نحن ثمنها مؤجلا على عشرة أقساط شهرية .

« وسافر فرحات على بركة الله مزوداً بالتفويض القانونى وباللوائح والإيصالات . وبتنا نتوقع أخباره السارة :

« ولكن كانت أولى رسائله أبياتاً من الشعر ينعى فيها إلينا كم ردائه الجديدة الذى أحرقته شرارة من مدخنة القطار قبل المحطة الأولى :

كأن الهـواء مع النار لمـا رآنى لبست الجديد اتفـق
فجـاء بها من دخـان القطار ونثرها فوقـه فاحـترق
فقلت أعاتب ربى مشـيراً إلى الحرق وهو كباب النفق
إلهى ، تضن علـى بثـوب وتكسو الغصون ثياب الـورق
ولو كنت غصناً لجـددتـه متى ما يشير الربيـع انطلق
ولكن أرى دون تجديـده شقاء الأسى وسيول العـرق

* * *

فى هذه الظروف القاسية ، ووسط كل هذا الشقاء والجوع والعرى والحرمان ، لم ينس فرحات وطنه ، ولم ينس عروبته .

فهو لايزال يتغنى بلبنان ، مسقط رأسه .

ولكنه فى هذا التغنى لاينسى لحظة واحدة أن لبنان ليس إلا جزءاً من وطنه الكبير ، الشام ، والشام عنده سوريا ولبنان معاً .

ثم لاينسى أيضاً أن الشام ليست إلا جزءاً من وطنه الواحد الأكبر ، الأمة العربية .

إنا وإن تكن الشـام ديارنـا فقلوبنـا للعـرب بالإجمال
تهوى العراق ورافديـه وما على أرض الجزيرة من حصى ورمال
وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا نروى بسائغ نيلها السلسـال
كنا وما زلنـا نشاطر أهلهـا مر الأسى وحـلاوة الآمال

ولايغنى إلياس للقومية العربية ثم يسكت. . . بل يمضى فى غنائه ، وهو الشاعر المسيحى اللبنانى ، فيمعن فى الإشادة بمحمد وبالإسلام ،

وبكل يد شاركت فى بناء هذه القومية .

يقول فى مولد محمد :

عمر الأرض بأنوار النبوة كوكب لم تدرك الشمس علوه
بينما الكون ظلام دامس فتحت فى مكة للنور كوه
من رأى الأعراب فى وثبتهم عرف البحر ولم يجهل طموه

* * *

ولم يقف فرحات بشعره عند هذا الميدان وحده ، بل شارك فى معركة فلسطين ، فكان له فيها أكثر من قصيدة ، منها قصيدته الرائعة التى نال بها جائزة المجمع العلمى المصرى ، سنة ١٩٤٧ ، وقدرها سبعون جنيهاً .

وبرغم أنه كان فى حاجة إلى كل درهم منها ، فقد أبى أن يتسلمها ، وحولها كاملة إلى صندوق إغاثة فلسطين .

وعندما فقد العرب فلسطينهم ، قامت فى أمريكا مؤسسة يسمونها النقطة الرابعة ، مهمتها تزويد الأمة العربية بنوع من المخدر اسمه الدولار ، لعله ينسى أبناءها ما فقدوه فى فلسطين من أرض ومن شهداء . ويومئذ قال فرحات فى قصيدة عنوانها « حكمة الأفعى » :

قالت الأفعى لأمريكا اسمعى إن تقليدك لى عين الشطط
أين منى أنت يا من سمها بغية التمويه بالشهد اختلط
بيننا الفرق كبير فاعلمى لا يحل الزيف ما الحق ربط
أنا لا أنكر أنى حية رضى العالم عنى أم سخط

أنا لا يهتف بالسـلم فى ويدى ترسم للحرب الخطط
أنـا لا أنصر لصا ، إن من ينصر اللص من اللص أحط
أنا لاأحمى جنـاة خانـة قذف الموج بهم من كل شط
أنـا لاأستعبـد المحتـاج فى نقطـة فيها من السم نقـط
خـدعة سميتهـا رابعـة كل أرقامك من هـذاالنمط
أنت فيـك السم لاحصر له وأنـا السم بنـابى فقـط

* * *

تلكم هى قصة المتنبى الجديد فى عجالة :

وقد عاد إلياس من مهجره إلى أرض العروبة فى سنة ١٩٥٩ فى عهد الوحدة ، وحينما نزل من الطائرة ، تلفت حوله ، ودمعت عيناه ، وقال : « ما فارقت هذه البلاد قط ، فقد حملتها معى إلى المهجر » . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مهجره من جديد ، بعد أن لم يجد سبيلا للعيش فى وطنه الأم .

الأخطل الصغير

بشارة الخوري

بعد « الأخطل الصغير » مات الهوى . . . وتحطمت الكأس .

فى الليلة الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٦٨ ، ودّع الدنيا أمير شعراء الحب والكأس فى هذا العصر ، وسيد شعراء لبنان فى كل العصور ، بشارة الخورى ، الذى اشتهر باسم الأخطل الصغير ، وصاحب الخمرية التى نسخت كل خمريات أبى نواس ، وأصبحت عطراً فى مشارب العشاق ، ونقلا فى مجالس الشاربين ، التى يقول فى مطالعها :

فتن الجمال وثورة الأقداح صبغت أساطير الهوى بجراحى
ولد الهوى والخمر ليلة مولدى وسيحملان معى على ألواحى
يا ذابح العنقود خضب كفه بدمائه ، بوركت من سفاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب. إذا المدامة عربدت فى كأسها ، ألا تكون الصاحى

* * *

اسمه الكامل : بشارة عبد الله الخورى . وقد ولد فى سنة ١٨٨٥ ، بحى الرميلة القائم على ضفاف البحر المتوسط فى بيروت ، من أسرة لبنانية خالصة ، نشأت فى قرية « مشمش » بمنطقة جبيل . وكان أبوه ، عبد الله الخورى ، يشتغل بالحكمة ، وهى كلمة كانت تطلق فى أيامه على مهنة التطبيب ، وكان الطب يومئذ بالممارسة لا بالدراسة والشهادة .

بيد أن عبد الله الخورى ، برغم أنه كان غير مأذون ـ أى غير مؤهل ـ كان ذائع الصيت فى مهنته ، يشخص الداء ويحضر الدواء بمهارة كانت حديث الناس فى عصره ، وقد اقتنى من كسب مهنته ثروة واسعة . وقد رزقه الله بأربعة من البنين ، هم نخلة ويوسف وجورج وبشارة . أما نخلة ، فقد سار فى ركب المغتربين إلى أمريكا الجنوبية ، فلم يعد حتى مات هنالك منذ عدة سنوات ، وكانت الشيخوخة قد جدت بشقيقه ـ شاعرنا الأخطل ـ الذى لم يعلم بوفاته إلى أن لحق به فى الدار الباقية ، وأما الآخران ، يوسف وجورج : فقد تعلما على يد أبيهما صناعة الصيدلة ، وبرزا فيها ، وكسبا منها ثروة طيبة . وأما شاعرنا ، بشارة ، فقد أدركته حرفة الأدب منذ صباه ، فالتحق بمدرسة الحكمة ببيروت ـ ولا صلة لاسم هذه المدرسة بمهنة الحكمة التى مارسها أبوه .

وتفتحت شاعريته منذ نعومة أظفاره على أيدى أعلام الأدب والشعر الذين تتلمذ عليهم فى هذه المدرسة ، وفى طليعتهم الشاعر الكبير شبلى ملاط ، والعلامة الشيخ عبد الله البستانى.

هكذا أدركته حرفة الأدب دون إخوته .

على أنه قد آثر أن يعيش محروماً كما عاش سواه من الشعراء ، ذلك أنه ورث أكثر من مرة . ورث أباه ، ثم أخويه يوسف وجورج ، وكان الميراث فى كل مرة ثروة طيبة ، أكثرها من البساتين النضرة المجزية فى محلة « البوشرية » ولكنه لم يحرص على الثراء ، فباع هذه

التركات تباعاً ، وأنفقها ذات اليمين وذات الشمال ، إذ كان مسرفاً كريماً مضيافاً محبًّا للحياة ، لا يرد سائلا ، ولا يحجم عن لذة ، ولو أنه حرص على ميراثه من الأرض ، وادخره إلى هذا الوقت الذى ارتفعت فيه أسعار البساتين ، لكان من أصحاب الملايين ، على أنه لم يأسف يوماً على ما أضاع ، فقد كان يعد إنفاقه عن سعة ، سماداً لشاعريته . والشاعرية وحدها – فيما يرى الشاعر الخالص – هى أرفع ألوان الثراء .

ومارس الأخطل فى شبابه مهنة تدريس الأدب العربى فى مدرسة « الثلاثة الأقمار » ، ثم فى مدرسة الفرير ببيروت ، وقد نبغ من تلاميذه فى مجال الأدب كثيرون ، من أبررهم الأمير عادل أرسلان .

ثم ضاق بهذه المهنة ، وأحب الصحافة ، ولاسيما بعد أن انطلقت من عقالها على أثر الانقلاب العثمانى وسقوط دولة السلطان عبد الحميد ، فأنشأ مجلة « البرق » الأسبوعية ، وحشد لها أقلام شعراء الأمة العربية فكانت مجلته سجلاً لأروع قصائدهم .

وخاض الأخطل معركة الحرية ، فكانت له مواقف عربية يذكرها التاريخ .

عمل – أول ما عمل فى هذا المعترك – سكرتيراً لحزب الأرز ، الذى نهض قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكانت رياسته الشرفية للحبيب باشا السعد ، ورياسته العاملة للأمير شكيب أرسلان ، وكانت رسالة هذا الحزب تتركز فى المطالبة باستقلال لبنان ، وانفصاله عن طاغوت الحكم

العثمانى ، وتوسيع رقعته الجغرافية ليعود إلى حدوده التى كان عليها قبل قبل سنة ١٨٦٠ .

ذلك أن لبنان يومئذ يقع تحت طائلة حكم دولى ، أرساه البروتوكول المعقود بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، وكان هذا البروتوكول بمثابة دستور يمنح أبناءه لوناً من الحكم الذاتى ، وإن كان يبقيهم رهن نيرين : السيطرة الدولية ، والسيادة الرمزية للإمبراطورية العثمانية . كما أن البروتوكول قلّم حدود لبنان، وأضاف منها إلى جيرانه، فكان من مطالب حزب الأرز استرداد ما ضاع من أرض لبنان ورده إلى أصله .

وشبت نيران الحرب العالمية الأولى ، وماتت روح الانقلاب فى نفوس الأتراك ، فعادوا إلى سابق عسفهم وطاغوتهم ، وراحوا يطاردون أحرار الأمة العربية فى كل بقاعها ، وينصبون لهم المشانق ويسلون عليهم سياط الجلادين ، فلاذ الأخطل الصغير بالجبال هرباً من كيدهم ، إذ كانوا يطلبون عنقه لارتفاع عقيرته بشعر الحرية ، وظل مستخفياً عليهم بين الوهاد أربع سنوات . وانتهت الحرب العالمية الأولى بمأساة سايكس بيكو، التى قسمت الأسلاب العربية بين الحلفاء المنتصرين، فكانت مصر والعراق وفلسطين من نصيب الإنجليز ، وسوريا ولبنان من نصيب الفرنسيين .

وعاد الشاعر الثائر إلى المعركة ، وعلت صيحاته فى طلب الحرية من براثن المستعمر الجديد ، الذى عاد إلى مطاردته كما فعل الأتراك

من قبل ، وعطل جريدته « البرق » التي كانت قد تحولت من أسبوعية إلى يومية .

ومنذ يومئذ سكت بشارة الخوري الصحفي ، لينطلق الأخطل الصغير الشاعر . وخلص للشعر وأخلص له ، وراح يترنم بأجمل ما غنى طير على ربى لبنان ، فتوالت غزلياته وخمرياته وبدائعه التي ثمل بها العاشقون ، وترنّح لها الشاربون ، وعزفتها أوتار أجمل حناجر أهل الغناء ، فغنى له عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمهان وفيروز ، وغيرهم من بلابل الشرق .

وعاش بشارة للحب والكأس ، بالطول والعرض .

كان الجمال يهزه من أعماقه إلى آخر أيام حياته ، وكان أكبر حب في حياته هو حبه للحسناء « أديل » التي التقى بها في مطلع شبابه ، وهي شابة من بيت كريم ، فتزوجها ، ورزق منها بأكبر أولاده ، عبد الله ، ولهذا كان الاسم المحبب لديه أن يناديه أصحابه بقولهم : يا أبا عبد الله . .

وأنجب منها بعده جوزيف وناجي ووداد .

وعاشت « أديل » في أعماق حبه الكبير .

أما الأخريات ، فكن ملهمات . . . مجرد ملهمات . . على غرار ما أحبهن أمير الشعراء شوقي ، وقال فيهن : كل مليحة بمذاق .

ملهمات . . . . يوحين بالمعنى للشاعر — فيصوغه في قصيدة ، ثم لايلبث أن يسعى إلى معنى جديد .

منهن الملهمة التى أوحت إليه بفكرة الصبا والجمال ، فقال :

الصبا والجمال ملك يديك ⁂ أى تاج أعز من تاجيــك
نصب الحسن عرسه ، فسألنا ⁂ من تراها له ؟ فــدل عليك
فاسكبى روحك الحنون عليه ⁂ كانسكاب السماء من عينيك

ومنهن الجمال معقود الحاجبين ، الذى ألهمه قوله :

يا عــاقد الحاجــبين ⁂ عــلى الجبين اللجــين
إن كنت تقصــد قتلى ⁂ قتلتــنى مرتــين

* * *

قرأت الأخطل الصغير منذ صباى . . . ذلك أنه ينتمى إلى المدرسة نفسها التى رادها أحمد شوقى : مدرسة الجزالة والخصوبة والثراء الموسيقى والإنسانية فى سمو قدرها . فلما التقينا بعد ذلك لأول مرة ، وجهاً لوجه ، فى أحضان لبنان ، تعانقنا كأننا صاحبان على شوق منذ سنين .

كان هذا اللقاء فى يوم مشهود . . يوم أن قرر لبنان تتويج شاعره الأكبر فى مهرجان كبير ، دعيت إليه وفود الدول العربية ، وذهبت إليه ممثلا لشعراء جمهورية مصر العربية ، والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وجامعة الدول العربية .

وكان مهرجاناً رائعاً ، لم تشهد الأمة العربية سابقة له إلا مهرجان شوقى ، يوم توج أميراً للشعراء .

ولقد أقيم حفل الافتتاح لمهرجان الأخطل فى مسرح اليونسكو

ببيروت ، واحتشد لبنان كله فى المسرح وفيما حوله ، وذهب رئيس الوزراء إلى بيت الأخطل ، ليأتى به إلى الحفل فى موكب رسمى حافل ، وكان ممثل رئيس الجمهورية عند الباب فى استقبال الشاعر العظيم ، وعزفت الموسيقى السلام الوطنى عند مقدمه ، ووقف له الوزراء والسفراء والكبراء ووفود الدول المشتركة فى المهرجان .

واستمر المهرجان أسبوعاً كاملا ، حفلت أيامه ولياليه جميعاً بحفلات التكريم وآيات عرفان الجميل للشاعر الذى خلد الحب وقدس الجمال .

ومع هذا لم يكن الأخطل الصغير شاعر الحب والجمال وحسب ، وإنما كان صوتاً من أجمل أصوات الحرية ، ووتراً من أروع أوتار الدعوة العربية ، وآهة من أعمق الآهات المتأوهة بآلام الإنسانية .

استمع إليه فى قصيدة « شرف الفتح » ينبه إلى حقد الغرب على الشرق لما لهذا من أصالة لم تتوافر لذاك ، ثم ينتهى إلى أن عظمة الدولة العظمى لا يهيئها لها استعبادها لرقاب العباد ، وإنما يهيئها لها تحرير رقاب العباد .

يقول بشارة :

ليت شعرى ، ماذا جنينا على الغرب	لنُشوَى على يديه ونقلى ؟
ألأنا من أفقنا تطلع الشمس	... فنعطى الغذاء حبًّا وبقلا ؟
ألأنا من صدرنا ولد الحب	... الذى شيد الحضارة قبلا ؟
إن يكن ذاك ذنبنا ، وهو لله	... فهلا عاقبتم الله .. هلا ؟

إلى أن يقول :

شرف الفتح أن تحطم قيــداً عن رقاب الورى، وتنشر عدلا

وفى قصيدة « الذئاب » . . . يحمل الأخطل حملة جريئة على حكام لبنان فى بعض العهود المتراخية المستسلمة لطاغوت الاستعمار الفرنسى ، ويستنفر همم الشعب للثورة على هؤلاء الحكام وسادتهم ، ويناشدهم باسم أحمد والمسيح ، عليهما السلام ، أن يتوحدوا لرد الظلم وطلب الحرية .

يا أمة غدت الذئاب تسوسها غرقت سفينتها ، فأين رئيسهــا
غرقت فليس هناك غير حطامها يبكي مؤبنها ويضحك سوسها
تتمرغ الشهوات فى حرماتها وتعيث فى عظماتها وتدوسها
تعساً لها من أمة ، أزعيمها جلادها، وأمينها جاسوسها ؟
رشيت مآذنها فلم تغضب لها غضب الكرام، وباعها ناقوسها

ثم يقول فى ختامها :

أتباع أحمد والمسيح، ألا انهضوا أتباع حرمتها وأنتم شوسها ؟

وفى بيتين له ، عنوانها « فليخجلوا » ينحى باللوم الساخر على الشرق الصابر على محنة الاستعمار صبراً دون صبر الكلاب .

إذا ما ضربت الكلب يعوى، وربما تقحم مؤذيه ، وعض بنابه
وفى الشرق ناس لو سحقت رؤوسهم لما نبسوا... فليخجلوا من كلابه

وفى قصيدته « وردة من دمنا » يبكى الأخطل الصغير مأساة الأمة العربية ، ويذكر أبناءها بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ويستنهضهم لغوث فلسطين فى كلم رائع ونغم سلسال .

سائل العلياء عنا والزمانا ... هل خفرنا ذمة منذ عرفانا
المروءات التى عاشت بنا ... لم تزل تجرى سعيراً فى دمانا

وكانت لمصر بين شقيقاتها العربيات مكانة خاصة فى أعماق الأخطل الصغير. ويوم وفاته، كان أصدقاؤه فى مصر يتلقون العزاء فيه كأنهم بعض أهله، بل لعل أهله أنفسهم أحسوا ذلك، فبعثوا يعزوننا فيه قبل أن نمشى إليهم بالعزاء.

وهو فى قصيدة «مرحباً مصر» يكرس الوشيجة التى تشدّ لبنان إلى مصر، وشيجة المجد العريق فى كليهما :

مرحبًا مصر مرحبا، كل أهل ... لك أهل، وكل صدر محل
ليس تألو الرياض أن توقظ الزهر ... ... وأن تجمع الشذا، ليس تألو
لتريق الأريج سكباً وتهتاناً ... ... على وجه مصر حين يطل
مرحباً مصر، يا شقيقتنا الكبرى ... ... ويحلو ترديد مصر ويعلو
نحن فرعان ألّف الشرق قلبينا ... . على الحب، والحضارة أصل
معجزات الزمان منكم ومنا ... زِنّ جيد الوجود والدهر طفل
هرم تجسم العظائم فيه ... وسفين على البحار يدل

وقصيدة الأخطل فى رثاء سعد زغلول، ولاسيما مطلعها الذى اهتزت له المنابر، ووضعته يومئذ فى منزلة الخليفة الشرعى لأمير الشعراء أحمد شوقى :

قالوا : دهت مصر دهياء فقلت لهم : ... هل غيّض النيل أم هل زلزل الهرم؟
قالوا : أشد وأدهى، قلت : ويحكمو ... إذن لقدمات سعد وانطوى العلم

لمْ لاتقولون إن العرب قاطبة تيتموا .. كان زغلول أباً لهمو
لم لاتقولون إن الغرب مضطرب؟ لم لاتقولون إن الشرق مضطرم ؟

ثم يقول فى إشارة جميلة إلى وحدة عناصر الأمة :

جاء النبيون من قبل، فما لأموا وجاء سعد، فشمل الشرق ملتئم
القائل الحــق لا تثنى أعنتــه والواحد الفرد فى أثوابه أمم
لطف المسيح مذاب فى محاجره وعزم أحمد فى جنبيه يحتــدم
صلى عليه النصارى فى كنائسهم والمسلمون سعوا للقبر واستلموا

وفى رثاء شوقى ، صعد الخليفة إلى عرش سلفه فى قصيدة انتزع بها هذا العرش ولم يقو على منافسته يومئذ أحد . قال الأخطل :

قف فى ربى الخلد واهتف باسم شاعره فسدرة المنتهى أعلى منابره
وامسح جبينك بالركن الذى انبلجت أشعة الوحى شــعراً من مناثره
إلهة الشعر قامت من ميامنــه وربة النثر قامت من مياسره
والحور قصت شذوراً من غدائرها وأرسلتها بديلا من ســتائره
أسراب مريم تلهو فى خمائلــه ورهط جبريل يحبو فى مقاصره
والملهمون ، بنو هومير ، ما تركوا لما أهل لهم ســجعاً لطائره
قال الملائك : من هذا ؟فقيل لهم هذا هوى الشرق، هذا ضوء ناظره
هذا الذى نظم الأرواح فانتظمت عقداً من الحب، سلك من خواطره
هذا الذى رفع الأهرام فى أدب وكان فى تاجها أغلى جواهره

شاعر الأقطار العربية

خليل مطران

سررت فى العمر مره وكنتِ أنت المسرّه
كانت حياتى روضاً وكنت فى الروض نضره
وكان غصناً شبابى وكنت فى الغصن زهره
وكان فكرى سماء وكان حبك فجره
وكان حسنك يوحى إلى يراعى سرّه
وكان لحظك يهدى إلى بيانى سحره
وكان ثغرك يملى على سماعى دره
وكان طيبك يهدى إلى ثنائى نشره
وكنت للروح روحاً وكنت للعين قره
قد كان هذا ولكن مضى وأخلف حسره
فبت لا شيء إلا حالين : ذكرى وعبره

«كان» . . . هو عنوان هذه القصيدة التى تسيل رقة وموسيقى وألماً وحسرة على حبيبة راحلة .

كان ذلك فى سنة ١٨٩٧

وكان الشاعر خليل مطران ، وهو يومئذ شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، يروح عن نفسه فى أحد متنزهات القاهرة ، حين ساق القدر إلى طريقه نحلة . . . نحلة صغيرة . . . بدلت تاريخ حياته ، وجعلت بقية عمره حباً وشعراً ودموعاً وذكريات . . .!

لقد وقعت النحلة على فتاة كانت تمشى فى المتنزه . فلسعتها ، فتلوت الفتاة من ألم اللسعة ، فتأود قلب الشاعر الشاب خليل مطران وحقد على النحلة ، وهم يطير خلفها ليصرعها انتقاماً للحسناء . وضحكت الحسناء . ثم عطفت عليه بنظرة داعية ، وتحدثا . وطال الحديث . .

ونظم مطران يومئذ مطلع ملحمته الكبرى « حكاية عاشقين » :

أفتـــدى مَن لَسعتْهـــا نحلـــة تطلب وردا
ظنت الوجنـــة ورداً فأتت ترشف شهدا

ومرت الأيام ، والحب يكبر وينمو ، ومطران يطلع على الناس كل يوم بقصيدة تذوب وجداً ، وهو مع كل هذا جد حريص على أن يكتم عن الناس اسم محبوبته ، فيبتدع لها فى كل قصيدة اسماً جديداً ، فهى مرة ليلى ومرة هند . . . ومرة سعاد .

وهى تسأله فى ذلك مسترِيبة متشككة ، فيقول لها :

يا منى القلب ونورالعين مذكنت وكنت لم أشأ أن يعلم الناس بما صنت وصنت
إن ليلاى وهندى وسعادى من ظننت تكثر الأسماء لكن المسمى هو أنت

ويطرأ على قصتهما ما يطرأ على قصص الحب المسرحية من انفعالات وتطورات وأحداث . . إلى أن تنتهى القصة بمرض محبوبته بداء عضال ، وتصعد روحها إلى بارئها ، وتترك وراءها شاعراً يقسم بحبها أن لن تكون فى حياته امرأة بعدها . . .

ويبرّ الخليل بقسمه ، ويعيش أعزب إلى آخر يوم من حياته ،

لاينساها ، ولاينسى أن ينتزع من أعماق قلبه فى كل عام قصيدة ينظمها فى ذكرى وفاتها .

ومن هذه « الحوليات » قصيدة «كان» التى بدأت بها الحديث .

* * *

من أين جاء هذا الشاعر ؟

كانو يسمونه شاعر القطرين . أى مصر ولبنان . وبعد وفاة شوقى وحافظ لقبوه بشاعر الأقطار العربية .

وفى الحق أنه بنسبه خليق بهذا اللقب ، فأسرته تتفرع من الأزد الذين كانوا يسكنون فى الأزمنة البعيدة أرض اليمن ، ثم نزحوا إلى الحجاز ، وهبطوا عند نبع غسان ، فسموا بالغساسنة .

ثم رحلوا إلى بلاد الشام حيث استقروا واعتنقوا المسيحية .

وإلى هنا نرى أن مطران يمنى حجازى شامى ، والشام يومئذ تشمل سوريا ولبنان قبل أن يبتدع الاستعمار الحدود بينهما ، فهو على هذا يمنى حجازى سورى لبنانى .

ثم هو بعد ذلك مصرى ، فقد قضى جل حياته فى مصر يشارك فى أحداثها ، ويجاهد مع مجاهديها ، ويتغنى بنيلها وأهرامها وأمجادها .

وهكذا أقول إنه أصدق شعراء العرب تمثيلاً للقومية العربية .

* * *

وفى مصر ، اشتغل الخليل بالصحافة .

وبدأت السلطات تطارد الأقلام الحرة ، وتحارب الصحافة بسيف قانون جائر للمطبوعات ، فنظم الخليل أبياتاً مخلدة لم تزل تروى فى كل جيل كلما ألمت بالصحافة محنة من محن الرأى .

قال يخاطب الحاكمين :

شردوا أخيارها برًّا وبحـراً   واقتلوا أحرارها حـرًّا فحـرًّا
إنمـا الصالـح يبقى صالحـا   آخر الدهـر ويبقى الشر شرًّا
كسروا الأقلام ، هل تكسيرها   يمنـع الأيدى أن تنقش صخرا؟
اقطعوا الأيدى هـل تقطيعها   يمنع الأعـين أن تنظر شذرا ؟
أطفئوا الأعين هـل إطفاؤها   يمنع الأنفاس أن تصعد زفرى ؟
أخمدوا الأنفاس ، هذا جهدكم   وبه منجاتنا منكم . فشكرا !

وكان رئيس الوزراء يومئذ مصطفى فهمى ، ربيب الإنجليز ، فتوعد مطران بالنفى ، فلم يهتز وكتب هذه الأبيات وعنوانها « مقاطعة » .

أنا لا أخـاف ولا أرجّى   فرسى مؤهبـة وسرجى
فإذا نبـا بى مَن بر   فالمطيـة بطن لـج
لاقول غـير الحـق لى   قول وهذا النهـج نهجى
الوعـد والإيعـاد مـا   كانا لدىّ طريـق فلج

* * *

كانت مدرسة الخليل فى الشعر غير مدرسة شوقى وحافظ . . .

صحيح أنه بدأ مقلداً ، وصحيح أنه حاكى شعراء زمانه فى أغراض الشعر الشائعة فى ذلك العصر ، من مديح ورثاء وإخوانيات . ولكنه

حينما نضجت شاعريته ، كان قد استقر على مدرسة جديدة يومئذ فى الأدب العربى ، هى المدرسة الرومانسية التى ألقت بها إليه ثقافته الفرنسية .

وبرزت لأول مرة فى جيله وحدة القصيد فى الشعر العربى .

وكان شوقى يحفل أول ما يحفل بالموسيقى ، وحافظ باللفظ الرنان ، أما مطران فبالخيال الجديد ، وإن ضاعت معه الموسيقى الأخاذة أو اللفظة الرنانة .

وأثرت مدرسته الجديدة فى الكثيرين من شعراء مصر فى عصره ، وفى طليعتهم إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وأبو شادى وغيرهم ، كما أثرت فى شعراء المهجر جميعاً ، وإن كان أولئك وهؤلاء قد حرصوا على الإفادة من مدرسة مطران ، دون أن يفرطوا فى موسيقى الشعر .

* * *

أما نظرية مطران فى الشعر فأدعه بنفسه يحدثكم عنها :

« استقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب .

« قال بعض المتعنتين الجامدين ، من المتنطعين الناقدين ، إن هذا شعر عصرى ، وهموا بالابتسام . فيا هؤلاء ، نعم هذا شعر عصرى ، وفخرى أنه عصرى ، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر » .

وبعد هذا .. أسوق رأى الأستاذ العميد فى شعر مطران .

قال الدكتور طه حسين موجهاً خطابه إلى مطران :

« إنك زعيم الشعر العربى المعاصر ، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين .

« أنت حميت حافظاً من أن يسرف فى المحافظة حتى يصبح شعره كحديث النائمين .

« وأنت حميت شوقياً من أن يسرف فى التجديد حتى يصبح شعره كهذيان المحمومين » .

وقال الدكتور محمد حسين هيكل :

« عاش مطران للحاضر فى الحاضر ، وجذب جيله ليجعله حاضراً كذلك .

فشعره وأسلوبه وتفكيره كلها حياة ، جلت فيها الذكرى ، وعظمت فيها الحيوية .

« ولهذا تراهم حين يتحدثون عن مطران ، يتحدثون عن الشعر والتجديد فيه » .

الشاعر القروي

رشيد سليم الخوري

إنه لم يولد فى «البربارة» .. بل ارتدى هناك قميصه الترابى فانتسب إليها .

ولكنه ولد مع الأعاصير فى الغابات ومع الزلازل فى الجبال
ومع الصواعق فى البحار ولد مع الندى فى الفجر
ومع الأزاهير فى الربيع ومع البلابل فى الجنان
ومع الجمال فى نشوة نيسان ولد مع الأسطورة فى عبقر
ومع الأنبياء فى الوادى المقدس ومع الرؤى فى ومضة الروح
ومع السحر فى أهداب العذارى

ولد مع الدمع الأخرس اللاعب فى غصة اليتيم ، وزفرة المنكوب . وعثرة الكريم ، وكربة المظلوم .

ولد الشاعر القروى مع أمته فى شروقها وغروبها ، ومدها وجزرها ، وخمرها وخلّها .

* * *

بهذه الصورة الرائعة من البيان : وصف أحد أدباء المهجر الأمريكى ميلاد قديس القومية العربية ، الشاعر رشيد سليم الخورى ، الذى عرفه قراء الأدب فى هذا الجيل باسم الشاعر القروى .

ولكن . لماذا نسميه قديس القومية العربية ؟

لأنه غنىّ ، برغم أنه عاش جلّ عمره ، أو كله ، لا يملك زاد يومه!

ولأنه فدائى برغم أنهم رموه بالخيانة !

ولأنه شاعر خالد . . . ولو أنهم أرادوا له ولشعره الفناء !

ولأنه قديس ... ولو أنهم اتهموه بالزندقة والإلحاد !

ولكى نصل إلى موطن الحقيقة من قوله وقول خصومه ، ينبغى لنا أن نعرف قصة هذا الشاعر .

* * *

ولد فى عام ١٨٨٧ فى ضيعة صغيرة فى لبنان ، اسمها البربارة .

وأخذ نصيبه اليسير من العلم، ثم اشتغل بالتدريس إلى أن مات أبوه ، ولم يخلف له إلا مسئوليات ثقيلة ، وديوناً أثقل .

وسمع الشاعر بقصة الذهب المنثور على أرض أمريكا الذى نزح إليه آلاف من بنى قومه من قبل، يجمعون منه ما يجمعون دون أن ينتهى حتى أصبح منهم السراة وأصحاب الملايين فنزح بأسرته إلى هناك.

كان هذا عام ١٩١٣ .

وهناك واجهته قصة الذهب المر .

إن عليه أن يبدأ كما بدءوا جميعاً .

عليه أن يحمل على ظهره « الكشة » . . . . أى « الخرج » . . الخرج الثقيل المصنوع من الزنك ، الذى حدثتكم عنه، وأنا أحدثكم عن إلياس فرحات . . يضع به ما يشاء من جوارب أو أربطة عنق أو أوراق وأقلام ومساطر . . . إلى غير ذلك . . . . ويطوف به فى الطرقات ، و يتنقل به بين البلدان ، يقرع الأبواب منادياً على بضاعته

وكان رشيد فى تجواله هذا يحمل العود إلى جانب الكشة .

وهنا يجب أن أذكر أن شاعرنا كان طروباً ، حسن الصوت ، حلو الإيقاع ، يعشق الموسيقى ويحسن العزف على العود ، ويطيب له أن يلحن وينظم الشعر ويغنيه .

وكان إلى جانب ذلك قد برع فى صناعة أربطة العنق ، وملأ بها وبغيرها كشته ، وجعلها تجارته .

* * *

وأدعه بعد ذلك يروى بنفسه بقية القصة :

« حملت صندوق الزنك مملوءاً بمختلف السلع ، ومربوطاً بسيور جلدية إلى كتفى ، وضربت فى ولايات أمريكا متعرضاً لأقسى مشقات الحر والسيول الطامية .

« كنت أرفع بصرى إلى السماء كلما أمطرت ، وأغنى العتابا حتى يمتلئ فمى بالغيث المدرار .

« ثم اشتدت الأزمة التجارية أثناء الحرب ، وكثر العمال العاطلون حتى ملأ المتشردون طرقات العاصمة ، فعمدت الحكومة إلى قيد أسمائهم وإيوائهم فى باحات المخافر (أقسام البوليس) يؤمونها كل مساء ، ويلقون بأجسادهم المنهوكة على حبال مشدودة بين حيطانها .

« فإذا أصبح الصباح ، حلّ الموكلون بهم أطراف الحبال ، فسقطوا على وجوههم ، ثم خرجوا يهيمون .

« وقد طال سعيى شهوراً فى تلك الأثناء ، ولم أجد مرتزقاً ، حتى استحكمت حلقاتها ، وفرغ آخر فلس من هميانى ، ولكن . .

« فى تلك الليلة بالذات (أى فى الليلة التى لم يكن بها بد من أن ينضم الشاعر إلى قطيع الصعاليك لينام على حبل الخفر) قيض الله لى أحد هواة العود ، فشرعت فى تعليمه مستلفاً أجرتى .. ثم تكاثر زملاؤه فاطمأننت إلى العيش » .

تلك فترة من حياة الشاعر . . . اشتغل فيها بتعليم العود ، ثم بتعليم اللغة العربية . . ثم عاد إلى التجارة . . . ثم . . . أفلس . . . وعاش طول حياته عيش الكفاف ، إلى أن عاد إلى وطنه الأول فى سنة ١٩٥٩ .

* * *

وقبل أن نروى قصة عودته ، نعود إلى قصة نصف القرن الذى عاشه فى المهجر الأمريكى ، من زاوية غير زاوية العيش.

كان كل هم بنى قومه هناك أن يجمعوا الذهب . . .

أما هو ، فإنه لم يمدّ يده إلى ذلك الذهب ، ولم يجعله همًّا من هموم حياته .

كان كل همه أن يستنفر قومه للجهاد من أجل تحرير الوطن العربى وإعلاء شأن القومية العربية .

وقد كانت هذه الدعوة — التى يؤمن بها اليوم كل عربى — كانت يومئذ حلماً أقرب إلى الخرافة .

ولكن صاحبنا حمل رسالتها ، وراح يبشر بها فى كل مكان ، فلم يكن يسمع بحفل وطنى إلا طرح كشته أرضاً ، وسار إلى الحفل ، واعتلى منبره يدعو للقومية العربية .

يقول الشاعر : «كنت أنقطع عن التجوال شهراً كاملا ، مضحياً بأجرتي ، ومنفقاً من جيبي ، لأنظم قصيدة طلب مني إلقاؤها في حفلة وطنية . ويشهد الله أنني ما دعيت إلى الكلام في مناسبة إلا وسخرتها للغرض الذي استبد بمشاعري ، أو فاجأت الحفل بموضوع من عندي للغرض ذاته».

* * *

وحاربوه ....

حاربه الخونة والمتعصبون الضالون حرباً لاهوادة فيها . . .

إنهم الذين أنكروا عروبة لبنان منذ أجيال ووهبوه لفرنسا ، وزعموه ضيعة فرنسية .

وأرادوا أن يشتروا ضمير الشاعر ، ولعل بعض مقدري أدبه قد أحسن النية فانضم إليهم في الدعوة إلى اكتتاب لشراء بيت للشاعر القروي ، خليق بمكانته .

ولكن الشاعر اعتذر من عدم قبول هذه الهدية ، وأصر على الاعتذار ، وقال في رسالة لصاحب له : « ألا ترى أن المكافأة المادية تنزل الشاعر عن عرش إبائه ، وتحدّ من حرية قلمه ، وتخفت صوته وتفقده سحره وتأثيره؟ فأنا أشعر أني أخسر بهذه الحملة أكثر مما أربح ، ولو شيدوا لي القصور . إن أمنيتي بعد هذه السن التي بلغتها ، هي قبر في وطني ، لاقصر في غربتي ، فالكفاف يكفيني ، والغنى لايغنيني » .

هكذا عاش الشاعر القروي في غربته قرابة نصف قرن ، وكل هم

الذين حوله أن يجمعوا الذهب وكل همه أن يحرك قلوبهم نحو الوطن ، وأحلى أمانيه أن يدفن فى تراب الوطن .

عد شاعرنا قصة هذا القصر الذى أرادوا أن يهبوه إياه ، مساساً بضميره فساءت حالته النفسية ، واعتلت صحته ، إلى حد أنه ارتمى على سرير بأحد المستشفيات ، حيث أنفق كل ما كان معه ، ثم لم يجد بداً من بيع ما لديه . . عوده وكتبه . . ليشترى ثمن الدواء .

الرجل الذى رفض القصر . . بات لا يجد ثمن الدواء !

ولكى تعلم مكانة هذا العود عنده ، اسمعه ينشد هذه الأبيات :

أين يا هند أنت أين ؟
لترى . . . آه لو ترين
شبحاً باسط اليدين
يسكب الدمع جدولين
أحمرين
كل حظى من الوجود
قلم ناحل . . وعود
منهما . . والورى هجود
أتسلى ببلبلين
شاديين

* * *

ونعود إلى المعركة . . .

لقيت البلاد العربية ألواناً صارخة من الظلم على يد الدولة العثمانية .

فلما قامت الثورة العربية سنة ١٩١٧ ، قرر الشاعر القروى أن يذهب إلى الميدان و يستشهد فى معركة التحرير .. وقال :

لنا وطن هلا سمعنا نحيبه وهلا رأينا ضعفه وشحوبه
حملت صليبى قاصداً أرض موعدى فمن شاء فليحمل ورائى صليبه

ولكن أصحابه أبوا عليه الذهاب ، ولم يمكنوه من الرحيل . .

ولعلك عرفت من البيت الأخير أنه شاعر مسيحى مخلص لعقيدته ، يشبه نفسه بالمسيح عليه السلام فى سيره لدعوته وهو يحمل الصليب ويدعو الناس إلى الزحف المقدس .

أذكر هذا، ثم اعلم بعد هذا أن الدولة العثمانية دالت بعد الحرب العالمية الأولى ، وجاء الاستعمار الفرنسى يجثم على صدر سوريا ولبنان .

وهنا . . يهب الشاعر مرة أخرى ثائراً على الاستعمار الجديد يصرخ فى وجه قومه أن يأخذوا بدعوة محمد فى الجهاد ، ويتركوا دعوة المسيح إلى المحبة والسلام حتى يحرروا أرض الوطن من رجس فرنسا :

إذا حاولت رفع الظلم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا
فيا حملا وديعاً لم يخالف سوانا فى الورى حملا وديعا
غضبت لذات طوق حين بيعت ولم تغضب لشعبك حين بيعا
ألا أنزلت إنجيلا جديداً يعلمنا إباء لا خنوعا

قال القروى هذا ، فثار عليه المتعصبون واتهموه بالزندقة والإلحاد .

ولكن القروى لم يرتد عن دعوته . بل مضى يضاعف حملته للجهاد، ويبعث الصيحة التى تدعو إلى تحرير جميع الشعوب العربية، ويقول فى عبارة جريئة إن الكفر الذى يوحد هذه الأمة ،خير من الإيمان الذى يفرقها .

بلادك قدّمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
لقد صام هندى فروّع دولة فهل صار صعباً صوم مليون مسلم؟
هبونى عبداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثمانى على دين « برهم »
سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم

وقد لقى شعر القروى صداه فى لبنان يومئذ .

وهذه قصة يرويها أديب لبنانى . واسمه « محمد قرعلى » نشأ بائع صحف ، ثم قرأ وكتب وأصبح من الأعلام .

يقول إن الشاعر القروى فى عهد الاحتلال الفرنسى كان يرسل قصائده الوطنية إلى أصدقائه ، فيطبعونها سرًّا فى نشرات ، ويعطونه إياها — قرعلى — ليبيعها فيما يبيع من الصحف ، فى غفلة عن عيون الشرطة ، وكان يبيع أقصوصة الشعر بخمسة قروش .

وذات يوم جاءت قصيدة نارية للشاعر القروى ، تتناول موضوع الساعة يومئذ فى لبنان ، وهو المجلس النيابى الزائف الذى أقامه المندوب السامى الفرنسى هناك ، ومنها :

وطن تحيرت العبيــد لذله وأذل منه رئيسه والمجلس
جاء المفوض بالعليق فحمحموا وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا

لاتسلقوهم بالكلام فإنهم جلسوا وهل نخبوا لكيلا يجلسوا ؟
فى كل كرسى تسند نائب متكلف أعمى أصم أخرس

وصادفت هذه القصيدة هوى كبيراً فى نفوس الشعب، وباع منها « القرعلى » آلاف النسخ .

على هذا العهد عاد القروى من غربته ، خاوى الوفاض، إلا من ثروة الشعر وكنز الوطنية .

وبقى فى الشام حتى زالت محنة شمعون، فأرسل إليه البطريرك المعوشى ، يسأله أن يعود إلى لبنان ، فعاد، ولايزال يعيش حيث ولد فى البربارة .

شاعر البحر الأبيض

صالح شرنوبي

هذا شاعر موهوب من أبناء الموت . . .

كانت حياته فى كل حركاتها وسكناتها تشير إلى أنه لابد لاحق بهؤلاء الموهوبين من شعراء الشباب ، الذين قضوا فى عمر الزهور .

هو كالهمشرى ، والشابى ، وفوزى المعلوف ، وغيرهم ممن احترقوا حساً وعاطفة ، ورأوا أن الدنيا لاتتسع لأمانيهم ، وأنهم خلقوا ليعيشوا فى عالم من النور لا من التراب .

* * *

فى صبيحة يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥١ ، صحوت على برقية مشئومة من آل شرنوبى ببلطيم هذا نصها :

« الأستاذ صالح على شرنوبى توفى إثر حادث أليم، البقاء فى حياتكم » .

ولست بواصف وقع الخبر على نفسى ، ولكن حسبى أن أذكر أن العرف قد جرى على أن أهل الراحل هم الذين يتلقون العزاء فيه من أصحابه .

أما هذا الشاعر ، فإن أهله قد رأوا من حق الوفاء أن يسبقوا إلى عزائى فيه قبل أن أعزيهم . فإنهم فقدوه ولداً عزيزاً ، أما أنا فقد فقدته شاعراً كان لى فخر الكشف عن مواهبه ورعايته وتوجيهه ، وتهيئة أكثر من سبب من أسباب الاستقرار لنفسه التى لم تكن تحب أن تستقر .

فى سنة ١٩٤٦ ، كنت أقدم فى الإذاعة المصرية برنامجاً عنوانه « براعم الشعر » .

وكانت غايتى من هذا البرنامج أن أكشف عن جيل من الشعراء الناشئين المغمورين، الذين لم تواتهم فرصة الخروج إلى النور ، عسى أن يكون فى هذا التشجيع لهم ما يعرف الناس بهم ويزكىّ مواهبهم ، حتى إذا آن لنا — نحن المخضرمين — أن نستريح ، خلفنا وراءنا جيلا جديداً من الشعراء يملأ الفراغ ويؤمن بأننا قد أدينا نحوه بعض الواجب الذى لم يؤده سابقونا من الشعراء .

وقد تلقيت لحساب هذا البرنامج مئات من القصائد ، من جميع ربوع المشرق والمغرب العربيين ، ولكنى لم أجد فيها جميعاً هذا البريق الذى وجدته فى قصيدة أو اثنتين ، كان صاحبهما صالح شرنوبى .

ودعوته على غير معرفة ، فإذا هو شاب فى نحو الثانية والعشرين من عمره يومئذ (وهو من مواليد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٤) طويل القامة رشيقها ، أسود العينين ، عربى السمات ، فيه أمثولة ظاهرة من جمال الرجولة ، وفى نظرته بريق وحدة ، وفى ابتسامته عذوبة ودماثة .

كان يومئذ شيخاً معمماً ، وكان طالباً بالسنة النهائية بالقسم الثانوى من الأزهر الشريف . ولكنه كان ثائراً على عمامته وجبته وقفطانه ،

ثائراً على المناهج التي يتلقاها في الأزهر ، بل ثائراً على الحياة ، وعلى نفسه ، وعلى كل شيء .

وبدأت علاج نفسه بأن حرضته على استكمال دراسته ، وما هي إلا أيام حتى نال ثانوية الأزهر . ويومئذ نصحت له بخلع العمامة ، فبدا في زيه الجديد فتى أنيقاً ، وسعدت روحه أيما سعادة بهذا التغير . ثم كانت شدة بيني وبينه ، إذ أراد أن يهجر الدرس والمدرسة ، وأردت له أن يتم تعليمه العالي ، وأخيراً ، استطعت أن أغلبه ، فالتحق بكلية دار العلوم .

ولكن الجولة الأخيرة كانت له ، فقد سئم الشروح والمتون والكتب الصفراء ، وهجر دار العلوم وراح يطرق الأبواب باحثاً عن عمل ، حتى وجده في مدرسة فرنسية للبنات ، يعلمهن اللغة العربية .

* * *

ولكنه كان شاعر الغزل ، فما كان ممكناً له أن يستمر طويلا في مدرسة للبنات بغير حماقة ، ولا كان له أن يحتمل صلف الناظرة فاستقال .

وأوصيت به عند الصديق الأديب الأستاذ محمد سعيد العريان — رحمه الله — بعد أن تلوت عليه جانباً من شعره ، فأعجب به أيما إعجاب ، وسألني أن أبعث به إليه في وزارة المعارف (يومئذ) .

وذهب الشاعر الشاب إلى وزارة المعارف ، ولكن كلمة جافة

من أحد الحراس كانت كفيلة بأن يقسم هذا الشاعر العزيز النفس بألا يطرق باب هذه الوزارة ولو هلك من الجوع .

وكانت نهاية المطاف أن التحق بأسرة جريدة الأهرام ، فى وظيفة متواضعة بقسم التصحيح ، ولكنه رضى بها ، وظل فيها إلى أن لقى وجه ربه ، فى حادث أليم ، دهمه فيه قطار فمات تحت عجلاته فى بلده . . بلطيم .

* * *

تلك هى حياته الدراسية والعملية .

أما حياته الخاصة الشاعرة ، فقد كان عندما عرفته يوشك أن ينتمى إلى بعض الأحزاب التى كانت قائمة فى ذلك العهد ، ويكتب الشعر فى مدح زعماء هذا الحزب ، ويطرى زيداً وعمراً من الساسة ، فقلت له : يا صاحبى ، إن الحزبية ليست ميداناً للشعر الخالص ، فاهجر ما أنت فيه واكتب الشعر للشعر وحده ، وإذا شئت ، فاكتب لوجه الوطن لا لوجه الأحزاب .

سمع يومئذ مقالتى ، وأطاع ، وظل على عهده حتى خطفه الموت .

* * *

قلت إنى احتفيت بشعره منذ أن قرأت له أول قصيدة ، فقدمته فى الإذاعة المصرية ، ثم أوصيت به لدى الإذاعة البريطانية ، وإذاعة الشرق الأدنى ، ووجهته قليلا إلى نظم الأغنية العربية والعامية ، لتكون

عوناً له على العيش ، فنجح ، وكانت له حتى فى أغانيه الدارجة فلسفة جميلة ، ولايزال المستمعون إلى إذاعة القاهرة يذكرون له تلك الأغنية الجملية التى مطلعها :

يااللى عرفتــوا الحيــاه   قولــوا لى معنــاها إيه

ولا أحسب أن شاعراً من شعراء الأغانى الدارجة قد اجترأ على خوض هذا الموضوع البتة . أما شعره ، فحسبى منه أن أثبت هنا قصيدة رائعة له فى وصف الممثل ، وأعتقد أنها أبدع ما قيل فى وصف الممثل فى الآداب العالمية .

هائم الروح بالهــوى والأمانى   خالد الذات وهو كالناس فان
فيه ما فى الحياة من مشكلات   فهو فوق النهى ودون العيــان
لوحة أثبت الزمــان عليهــا   أبدىّ الظلال والألــــوان
هو كالطينة الــتى نحن منها   فهو كل الأنــام فى إنسان
ملك حينما يشاء له الفــن   علىّ المقــام والصوبلجــان
أو حقير عريان مزقه الجوع   وأضنته لوعـــــة الحــرمان
وإذا ما أرادفهو مــــلاك   قدسىّ مطهــــر صمدانى
أو غوىّ تضج منــــه السما   وات ، مريد الأعلى الشيطان
كل حى له لسان ، وهــذا   وحده ناطــق بألــف لسان
ولقد يعجز البيان إذا عــبّ   ر عما يريــد دون بيــــان
بانفعالات وجهــه الإنسانى   واختلاجات جسمـــه الأفعوانى
بيديه . . بحاجبيه . . بعينيــ   ــه . بما . لاتقولــه الشفتان

فهو باك أوضاحك ، وبليد   عبقرى أو معجز ذو افتنان
وإذا حدثت يداه ، فــرحي   وإلى الملــتقى .ودعــنى وشانى
واعذرونى. .أو أنقذونى . أو اب   كوا لبكائى..أوفاهزجوا بالأغانى
وإذا حاجباه شالا فإعجـا   ب محب أو كبرياء أنــانى
وبعينيه ، ويح عينيه ، دنيا   صبوات وفلسفات معـانى
فهما شعلتان وهاّجتــان   أبداً بالوجود طوّا فتــان
وهمــا طفلتان عــربيدتـان   وإلهيتــان شيطــانتـان
يخفق الكــون حين تأتلقان   وتنام الحياة إذ تخبــوان
وعلى ثغره . . وفى شفتيــه   يتلاشى السكون فى الهذيــان
شفتاه أو شاطئــا البحر سيّ   ان فى قلبه محيط الزمــان
إن يُقلبهما فما أعجب الساخ   ر يشقى بسُخره الخافقــان
أو يدوّرهما فما أظمأ القبـ   لة تهفو إلى خــدود الحسان
أو يحدث عن الغرام فقد تصـ   بح أنت الخلى عبــد الغوانى
هو إن ثار فالبسيطة رومــا   وهــو نيرونهــا بلا نــيران
وإذا ما اطمأن فالجدول العا   شق يشكو هواه للشطآن
ربما تلتقيــه ينســاب بشراً   وبجنبيه ثــورة الــبركان
ليت من يحســدونه عرفوه   فهو كون كهذه الأكــوان
حيرتى فيه مثل حيرته الكـ   رى إذا مثل التقى وهو جــانى
أنا ما إن وصفته ، غير أنى   قد تمثلت عــالم الفنــان

* * *

كانت حياة هذا الشاعر حافلة بالحب . . . والتسامح . . . والإنسانية

كان لا يفتأ يتبرم بالجحود الذى عاش فى بيئته إذ هو طالب بالأزهر، ويستنكر التزمت الذى يغمر أكثر رجال الدين .

وكان متحرراً إلى أبعد الحدود ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة والفكر .

وكان يلقى كثيراً من المحاضرات الأدبية فى جمعية أصدقاء الكتاب المقدس ، ويصادق كثيراً من القساوسة ، وكم من مرة رأيته وهو شيخ معمم يتأبط ذراع قسيس ويسير به فى أحياء الأزهر والحسين يتلو عليه شعره ، والقسيس مفتون بشخصيته وحديثه وشعره .

ولست أنسى ما حييت لهذا الشاعر ، كلما قرأتها فى جمع بكيت واستبكيت ، قصيدة عنوانها « أختى » قالها فى وصف أخت له ، اسمها هيام ، جميلة ، ولكنها بلهاء .

يقول فى مطلعها :

أختى ، قصيدة شاعر الغزل　　　أختى ، تميمة ساحر الحبل

أختى هيام ، وأنت من أملى　　　لأنا الحزين عليك يا أختى

ثم يصف لوعة أمه وأمها حين تتلفت فتجد بنات الحى قد سعدن فى بيوت أزواجهن ، إلا هى ، هيام ، لا تزال إلى جوارها بلا زوج ولا بيت ولا أمل فى المستقبل . . يقول :

وتقول أمى حين تلقاك　　　ياليت قلبى ماتمناك

أوليت مهدك كان مثواك

للك فى بنات الحى أتراب　　عرسانهن لهن أحباب
فأقول والمقدور غلاب :　　الحظ خانك أنت يا أختى

ويسهر الساهرون فى سامر البيت ، فإذا حديثهم سخرية بهذه الأخت البلهاء ، وضحك من بلاهتها . فإذا ناداها الكرى قامت لتنام ، فقال الساهرون : لقد نامت تسليتنا .

أما الشاعر ، فينظر إليها فى حسرة وإشفاق ، ويقول بل نامت مأساتنا . . يقول :

وإذا الكرى نادى الحليينـــا　　فأجبته وهجـــرت نادينا
قالوا نأى من كان يسلينـــا　　فأقول بل من كان يبكينا
ويحيل أحناناً كقاسينـــا　　ويثير فى نفسى البراكينا
وأظل أبخس منك يا أختى

قاس عليك أنا فلا تغضى　　إما قسوتُ فليس عن بُغض
أنا فى السماء وأنت فى الأرض

أنا فى سماء من خيالاتى　　أحيا بفكرى وانفعالاتى
فانأىْ بأرضك عـــن سمواتى　　تنأ القساوة عنك يا أختـــى

* * *

هذه لمحة عن حياة هذا الشاعر الذى نشأ بين تلك الأكواخ الشاعرية الجميلة المترامية على شاطئ البحر المتوسط عند بلطيم ، فى شمالى مصر ، عيشة كلها شعر وخيال وإنسانية وعاطفية وبؤس وذهول .

ومات عند ذلك الشاطئ قبل أن يتجاوز الخامسة والعشرين .

الشاعر العملاق

عباس محمود العقاد

كان يقرأ كثيراً . . .

وكان يقرأ فى السياسة ، فيجد مصير الوطن ضائعاً بين الأحزاب والاستعمار ضياعاً يشبه اليأس . . . وكان يقرأ فى الدين ، فيشدّه الشك إلى دائرته بعنف . وهو يقول فى وصف هذا الشعور — فيما بعد — إنه يكفى أن يفقد الإنسان عقيدته ، ليفقد إيمانه بالحياة .

وفجأته قصة ذلك الحب اليائس فى تلك الآونة ، فقرر أن يضع نهاية لحياته . . ودخل غرفته ، وأعد السم ، ثم راح يتطلع إلى صورة أمه ليتزود منها بنظرة الوداع ، فما لبث أن ظفر من عينيها بنظرة ردته عن فعلته ، فعاد يتشبث بالحياة ، ويستشعر لذّتها .

وخرج العقاد من هذا الحدث فى حياته بأن المؤمن بالله هو وحده الذى يحس بقيمة الحياة ، لأن الحياة فى نظر الملحد ، تبدأ وتنتهى بنهاية الأفراد ، أما المؤمن ، فللحياة عنده قيمة سامية ، لأنها موضع رعاية الخالق .

أما المحاولة الثانية ، فكانت سنة ١٩٣٥ ، بعد أن اشتدت خصومته مع حزب الوفد ، وتعطلت الصحف التى كان يعمل بها ، فقاسى مرارة البطالة وحرقة العوز ، فآثر الانتحار على أن يقبل عوناً من أى إنسان . . . ومرة أخرى . . . رده الإيمان بالله إلى حب الحياة .

* * *

هل كان العقاد عدو المرأة ، كما يقولون ؟

الذى أعلمه علم اليقين ، أنه ما من رجل أحب المرأة كما أحبها العقاد . .

ولكنه أحبها أنثى . . . ولم يحب لها أن تكون أكثر من أنثى . . .

أحبها أن تكون امرأة ، وأن يكون كل ما فيها امرأة . . .

وكانت الأديبة « مارى زيادة » — أو الآنسة مى . . . . كما لقبوها فى عصرها — أول حب فى حياته ، بعد حب الصبا الذى تحدثنا عنه .. على أنه كان حبًّا من طرف واحد . . . هو طرف العقاد طبعاً !

ولم يكن العقاد فريداً فى حبه «لمى» على هذا المنوال ، فقد أحبها جميع أدباء مصر وشعراؤها فى ذلك العصر ، على الوتيرة نفسها — وتيرة الطرف الواحد — كما أسلفنا القول فى حديثنا عن مطران، ومنهم أحمد لطفى السيد وأنطون الجميل وشبلى شميل وإسماعيل صبرى . . . . وغيرهم .

ويحدثنا العقاد عن حبه « لمى » ، فيقول وقد سئل ... هل تتمنى أن تعود « مى » إلى الحياة ؟

— أتمنى . . . . على أن تعود شابة . . .وأن تختار لها فى حياتها الثانية آمالا غير آمالها فى حياتها الأولى ، لأنها كانت ممن تبهرهن المظاهر . . . مظاهر الجاه والبأس ، حتى الأجوف منها ، مما لا يتفق مع مواهبها الممتازة فى الروح والذهن .

وهو يصف هذه الخلة فى « مى » من خلال بيتين أغلب الظن أنه قالهما وقد غضت « مى » عنه الطرف ، لفقره يومئذ .

حسبنا منك أن نراك وإن كنت تميل الجفون للإغضاء

وتجل الغنى ، وما الحسن إلا سلعة عند معشر الأغنياء

وتأتى بعد هذا . . . سارة . . . أكبر حب فى حياته .

سارة ... التي كتب فيها يتيمته الوحيدة في عالم الرواية ، ولا ينكر العقاد أن قصته مع سارة هي القصة الواردة في الرواية .... وأن «همام» بطل الرواية هو العقاد نفسه .

ويحدثنا عن سارة فيقول :

– كانت أجمل من رأيت في أيام فتنتي وشغفي بالجمال . كانت حزمة من الأعصاب تسمى امرأة ، استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة . . . ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء . . لها فراسة نفاذة في كل ما بين الجنسين من صلة . . . تفطن لما في نفس المرأة لأنها امرأة ، وتفطن لما في نفس الرجل لأنها امرأة !

ويستطرد العقاد في اعترافه بحكاية « سارة » فيقول :

– هكذا بدأت قصتنا عنيفة فائرة . . كانت أنثى جميلة ... وكنت أنا شابًّا عنيف الطبع قويّ الإحساس بنفسي . كانت تزورني كل يوم جمعة ، في الساعة الخامسة مساء . وقبل حاول موعدها بربع ساعة ، كنت أطل عليها من ثقوب النافذة أترقب قدومها في الطريق ؛ فإذا احتوانا البيت ، فالعالم كله معي داخل البيت . كنا نقضي يوم الجمعة في خلوة كاملة . وكنا نقوم نحن الاثنين بالخدمة . كان يوم الجمعة هو يوم الحب في حياتي .

ويسرح العقاد قليلا ، ثم يمضي فيقول :

– وليوم الجمعة قصة ... فهو يوم الحب عند اليونان ، وكذلك مدلوله عند العرب . فهم يقولون عن يوم الجمعة إنه يوم العروبة – بفتح العين – وهى البنت اللعوب الجميلة .

ثم يتحدث « العقاد » فى أسى عن نهاية قصته مع « سارة » .

– بدأت نهاية القصة بالشك . . . شككت فى حبها لى ، فاستحال الوجد إلى فتور ، والشوق إلى ضجر . قام الشك فى نفسى على علامات وقرائن لم أقطع بها . . . حتى عهدت إلى صديق بمراقبتها ، وجاءنى منه الخبر اليقين ، فلم أملك إلا أن أقتل هذا الحب وأسير فى جنازته .

هذه قصة سارة . . . وهى قصة يغلب عليها الحس كما ترى . ومهما يكن من رأيى ورأيك فيها ، فلا شك أنها كانت أقوى من ألهم « العقاد » . . . ألهمته روايته الطويلة اليتيمة . وألهمته عشرات من خير قصائده . . قال فيها :

أيما لفظة جـــرت ... من فم المـــرأة امرأه
تبتغى الزوج من فتَه ... والأخـــلاء من فتَه
ليس بالجسم وحده ... يعرف الجنس منشأه

وقال فيها وقد بدأت النار تهدأ :

فرغت من الحب الذى يعقب الشكوى ... فحبى من النعمى وليس من البلوى
بذلت له نارى ثلاثـــين حجـــة ... فلا نار بعد اليوم ... أليوم للحلوى

وقال فى نهاية القصة :

تلك التى كنت أغليها وأذكرها ... صبحاً ومسياً وفى سر وإعلان

قد كنت أرحم نفسى من تذكرها   اليوم أرحمها من فرط نسيانى

وبعد سارة . . . هل تاب العقاد عن الحب ؟ . وهل حقد على المرأة ؟ أبداً . . .

لقد سئل فى هذا أكثر من مرة ، فكان جوابه : إن الأديب الذى يعيش بغير حب لايكون أديباً على الإطلاق ، لا لمجرد أنه لايحب بل لأنه لايحس .

وطالما استنكر « العقاد » قول من قالوا إنه لم يعد يستطيع أن يحب بعد « سارة » ، وكان يقول إن كل إنسان معرض للوقوع فى هوة الحب فى أى وقت ، وفى أية سن ، ولو كانت بعد السبعين .

كل ما حدث ، أن رأيه فى الحب قد تغير ، كما تغير رأيه فى الحياة نفسها .

يقول العقاد : كنت أحب الحياة كعشيقة ، تخدعنى زينتها الصادقة وزينتها الكاذبة ، فأصبحت أحبها كزوجة ، أعرف عيوبها وتعرف عيوبى . لا أجهل ما تبديه من زينة ، وما تخفيه من قبح ودمامة .

إنه حب مبنى على الفهم .

وكذلك رأيه فى الحب .

وفى حياة العقاد — بعد سارة — حب كبير . . . بطلته نجمة لامعة ، لا أحسب أن من حقى أن أميط اللثام عنها ، ولكن من حق التاريخ عليها أن تميط هى اللثام عن قصتها مع العقاد يوماً ما . . . بكل ما وراء هذا اللثام من رسائل وقصائد وحكايات ، لأن قصتها مع العقاد

جزء من تاريخه ، وتاريخه جزء من تاريخ الأدب فى هذا الجيل .

مرة . . . نسجت له صداراً (بلوفر) فى عيد ميلاده . . فنسج لها قصيدة من أرق قصائده ، يقول فيها :

هنا مكان صدارك — هنا ، هنا فى جوارك
هنا ، هنا عند قلبى — يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليل — على المودة ، حسبى
ألم أنل منك فكره — فى كل شكة إبره
وكل عقدة خيط — وكل جرة بكره ؟
هنا مكان صدارك — هنا ، هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير — مطوق بحصارك
هذا الصدار رقيب — من الفؤاد قريب
سليه ، هل مر منه — إلىّ طيف غريب ؟
نسجته بيديك — على هدى ناظريك
إذا احتوانى ، فإنى — ما زلت فى أصبعيك

* * *

أحبها العقاد حبًّا كبيراً . . .

وعرفنا يومئذ ، وبعد يومئذ ، الكثير من أمر قصة الحب هذه ، ثم جاءنا من يؤكد لنا هذه القصة فى مقدمة للديوان الجديد « ما بعد البعد » . . ويقول إن ما فى هذا الديوان من شعر عاطفى . . . » يصور إلى حد كبير مشاعر الحب ونفحات

القلب وشعور الحب ونهاية ذلك الحب ، مما يفهمه القارى اللبيب بضمه إلى مثيله فى ديوان - أعاصير مغرب - فنخرج له صورة متكاملة لتلك المحبوبة السمراء »

ولهذه السمراء « لوحة » فى حياة العقاد . .

قصة هذه اللوحة : أن الحبيبة السمراء بعد أن تملكت قلب العقاد ، جاءته ذات يوم تقول له إنها قد تلقت عرضاً للاشتغال بالسينما .

وقاوم العقاد هذه الفكرة مقاومة جبارة . لأنه ، كما يفعل كل عاشق كبير ، أراد أن يستأثر بها وحده ، لا يشاركه فى المتعة بجمالها الأسمر أحد من الناس . . قائلا لها :

سماتك الحسناء ملكى أنـا ... وحدى ، أرى فيها خفايا الجمال
إذا رأوها فاتهم نـورهـا ... ولم يطيقوا منه غير الظـلال
لو لم تكن ملكى ، لمـا حرمت ... يوماً عليهم ، وهى سحر حلال

وطالت متعة العقاد بها ، متعة روح وحس ، وسعد كما لم يسعد بعد مأساة سارة ، وراح يصف كل هذا فى أبيات عنوانها « سعادة الحب » . . . وهى أبيات جريئة لم يكتب العقاد مثلها بصراحتها - فى حياته :

وأحب ما فى الحب ، أنت سألتنى ... عنه ، وأنى بالجواب لعـالم
متجردان .. ويملكان سعادة ... لكليهما ، لا يحتويها العـالم
يتمليان للصحوة الكبرى ، وقد ... سعدا بأسعد ما رآه الحـالم

ولعلهما تناقشا فى حكاية السينما مرات ومرات . . . ولعله قال لها إنه

لا يحب أن يكون جمالها متاعاً مشاعاً للجميع ، ولعلها قالت له وهى تحاوره ، إنه إذا كان يقصد الحلال والحرام ، فهل ما بينهما حلال ؟

ولعله أجابها بقوله: إن المرأة التى تهب نفسها لرجل واحد ، يستأثر بها وبالمتعة بها وحده بغير شريك، لا ترتكب أمراً إدّا ، بل هى — فى عرفه — مصونة وممتنعة .

هذا ما نفهمه من هذه الأبيات، وعنوانها « أجيبى » :

أجيبى يا بنية واستجيبى فما بخس المحاسن مستطاع
وليس الحب مبتذلا ، إذا لم يكن فى البذل تسليم مشاع
أحبك مرتين ، إذا تـأتى متاع هواك، واتصل المتاع
إذا التسليم عـز على محب سواى، فذاك صون وامتناع

ولكن حلم السينما ظل يراود السمراء ويلح عليها ، حتى تغلب على حبها للعقاد .

وعرف العقاد الأمر . . وجاءت تزوره بعدئذ ، فثار فى وجهها ثورة عارمة ، ولفظها إلى الخارج ، وأغلق الباب وراءها وقلبه يتأرجح بين الأسى والأسف .

وأخذت السمراء طريقها إلى الشاشة ، وتألقت عليها .

فهل هدأت ثائرة العقاد ؟

هل نسيها . . أوراح يتعذب بها ؟

إن هذه الأبيات ، وعنوانها « بنت الفن » . . تكشف لنا أنه لم ينسها ، وأنه راح يحاول أن ينتقم بالكلمة ، فى غمرة شعوره بذلك اللون

من الشعور الذى يسميه علماء النفس « الحب ـ الكراهية » وهى أبيات مرة قاسية لاترحب بها أية مشتغلة بالفن :

أفى حجرة النوم أم قاعة العرض .. جمهور فنك مستحضر؟
ومن تعرفين ؟ أمـــام الستار .. أم خلفه دائمــا أكـثر ؟
وهل أنت نجم ، لأن النجوم فى ليلها أبــداً تسهـــــر ؟
أمور إذا ما احتواها السؤال فالسائلــون بهــا أخـبر
فما تبررين ومــا تسـترين بغير شعــاع لهــم يظهــر !

ولم ينسها العقاد بسهولة . . . .

وراح يلتمس كل وسيلة للنسيان ، فكانت أنجح وسائله هى تلك « اللوحة » التى أشرت إليها إشارة عابرة .

طلب العقاد إلى صديقه الفنان المعروف صلاح طاهر أن يعينه على النسيان ، برسم لوحة كبيرة . . . تمثل « تورته » مزركشة فاخرة ، تحوى أجمل ما تحوى من الحلوى ، وقد هوم عليها الذباب وتكاثرت عليها الصراصير .

« التورتة » الجميلة ترمز إلى السمراء .

والذباب يرمز إلى الجو الذى ذهبت إليه . وأنجز صلاح طاهر اللوحة ، وقدمها للعقاد ، الذى علقها فى غرفة نومه ، أمام مخدعه .

وبعد أيام ، وبهذه الوسيلة ، نسى العقاد . . . ولكنه خشى أن يرفع اللوحة من حجرته فيعاوده الحنين إلى سمرائه ، فأبقى عليها فى غرفة نومه سنوات طويلة ، إلى أن أدركته رحمة الله .

* * *

أحسبنى أغريتك بالإيغال فى شعر العقاد . بعد أن شددتك إليه بجانب الرقة العاطفية منه .

على أن هذه الرقة العاطفية ، التى تضع إبهامها على كل قصيدة من قصائد شاعر كناجى أو رامى أو البهاء زهير أو عمر بن أبى ربيعة ، لاتضع إبهامها على الكثير من شعر العقاد ، الشاعر الذى عاش دائماً أكثر حياته — إلا فى فترات الحب منها — يفكر بقلبه ويحس بعقله .

وهذا هو سر إيمان العقاد بالشعر ، وبتطور الشعر ، فهو لا يستمرئ قول الكاتب الإنجليزى توماس بيكوك فى رسالته عن الشعر ، إذ يقول :

« الشاعر فى عصرنا هذا هو نصف همجى يعيش فى عصر المدنية ، لأنه يقيم فى الزمن الحالى ، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وسوانحه إلى الأطوار الهمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى ، ويسير بذهنه كالسرطان زحفاً إلى الوراء . . . » .

لايستمرئ العقاد هذا الرأى الذى ينادى برجعية الشعر ، ويؤثر عليه قول فيكتور هوجو فى كتابه عن شكسبير إذ يقول :

« ينادى كثير من الناس فى أيامنا هذه — ولاسيما المضاربون وفقهاء القانون — أن الشعر قد أدبر زمانه . فما أغرب هذا القول ! . . . الشعر أدبر زمانه ؟ لكأن هؤلاء القوم يقولون إن الورد لم ينبت بعد ، وإن

الربيع قد أصعد آخر أنفاسه ، وإن الشمس كفت عن الشروق ، وإنك تجول فى مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة ، وإن القمر لاينظر له ضياء بعد اليوم ، والبلبل لايغرد ، والأسد لايزمجر ، والنسر لا يحوم فى الفضاء ، وإن تلال الألب والبرانس قد اندكت وخلا وجه الأرض من الكواعب الفواتن والأيفاع الحسان . . .

« لكأنهم يقولون إنه لا أحد اليوم يبكى على قبر ، ولا أم تحب وليدها ، وإن أنوار السماء قد خمدت ، وقلب الإنسان قد مات» .

ويخلص العقاد من الموازنة بين هذين الرأيين وإلى أن الشعر لايفنى إلا إذا فنيت بواعثه . . . قائلا :

« إنى لا أرى فى ضروب الخطأ رأياً أخطل من زعم الزاعمين أن الشعر يحن إلى الماضى ويحجم عن المستقبل » .

وإذا كانت بواعث الشعر عند ناجى وأضرابه هى الحب ، والحب وحده ، فإن بواعثه عند العقاد واسعة المدى إلى حد يكاد يلمس اللانهاية ، فكل أمر من أمور الحياة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وكل وجه من وجوه بواعث الموت ، وما بعد الموت من آخرة ، هى مادة للشعر عند العقاد ، وهذا ما يعنيه المازنى حين يقول عن صاحبه[1]:

« إنى اطلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عينى ، وإنى وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أدرك كنهه ، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه ، وإنى زدت للحياة فهماً ، وبها شعوراً وعلماً » .

وبهذا الإلمام الواسع والبواعث الضخمة جنى العقاد على صاحبه المازنى ، الذى أحس بقصور مجالات شعره أمام العقاد ، فهجر الشعر قائلا : « وانتهيت إلى أنه لاخير فيما قرضت من الشعر ، وأن الأدب المصرى لا يزيد به ولاينقصه إذا فقده . فكففت عن نظم الشعر ، ونفضت يدى من القريض » .

* *

أما غيبياته ، وأبرز محاولاته فيها ملحمة « ترجمة شيطان » . . . . فهى تجرنا إلى الحديث عن مدى إيمان العقاد . وإنه لإيمان عميق ، موروث ومفهوم ومحسوس .

يتحدث العقاد عن الله فى كتابه « أنا » فيقول إن الله موجود ، وإن الفلسفة تؤكد هذا الوجود إذ تعلمنا أن العدم معدوم ، فالموجود موجود ، موجود بلا أول ولا آخر لأنك لاتستطيع أن تقول : « كان العدم قبله ، أو يكون العدم بعده » ، وموجود بلا نقص يعترى الوجود من جانب عدم ، ولا عدم هناك ... موجود بلا بداية ولا نهاية ولانقص ، لأن الكامل الأمثل هو الله ، ونحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة فى فترة واحدة من الزمان » .

* * *

ويطول بنا الحديث عن شعر العقاد فلا ننتهى فى مثل هذا القدر المحدود من الصفحات ، فلا بد لنا من أن نصطنع وقفة أخيرة نلملم بها أطراف الحديث ، فنقول إن العقاد كان صحفياً وناقداً ومؤرخاً وفيلسوفاً

وقصاصاً وناظم أغنية . . . ولكنه كان يعتد ، أكثر ما يعتد ، بكونه شاعراً ، وأن أرفع مناصب حياته أنه كان مقرراً للجنة الشعر .

وفى هذا المنصب ، خاض أكبر معارك حياته الأدبية — وهى كثيرة — مع دعاة الشعر الجديد ، المتحرر من الوزن والقافية . ومن التجنى على العقاد أن يقال إن وقفته هذه من الشعر الجديد ، هى وقفة رجعية ، فالتاريخ يشهد أنه السياسي الوحيد فى عهد الملكية ، الذى وقف على منبر البرلمان يطالب برأس الملك ، وقد دفع ثمن هذه الصيحة تسعة أشهر فى السجن .

والتاريخ يشهد أنه كان سند حزب « الوفد » حينما كان الوفد يمثل الأمة .

والتاريخ يشهد أنه كان من أوائل الثائرين على الوفد حينما انحرف الوفد .

والتاريخ يشهد أنه عاش ما عاش فى مجال الحزبية بلا مغنم ، وأنه ذاق شظف العيش دون أن يمد يده ، وأنه عاش عيشة النساك المتقشفين إلى أن مات ولم يترك من عرض الدنيا إلا كتبه . . . .

لم يكن عداؤه للشعر الجديد إذن عن رجعية ولا عن جمود ، فهو صاحب المدرسة العقلية فى الشعر والنقد والفلسفة ، التى لا تعترف بالجمود .

وهو صاحب أول دعوة للتجديد فى الشعر المعاصر ، مع صاحبيه عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى . وكان تجديدهم تطويراً للشكل والمضمون معاً . أما تجديد المضمون ، فلا ينكره ألد خصوم العقاد .

وأما تجديد الشكل ، فإليك صورة عذبة منه ، قصيدة « بعد عام » منها :

كاد يمضي العام يا حلـو التثني
أو تولى
ما اقتربنا منك إلا بالتمـــنى
ليس إلا
مذ عرفنــاك عرفنا كل حسن
وعذاب
لهب فى القلب ، فردوس لعينى
فى اقترابى
غير أنا لا نــرى الفــردوس إلا
رسم راسم
وشربنا من جحيم الحــب مهلا
شرب هائم

* * *

وصورة أخرى للتجديد فى الشكل ، نجدها فيما أسلفنا من نماذج .
ولكن العقاد كان يرى ــ ورأيه الحق فيما نرى ــ أن التجديد يجب أن يكون مقيداً بقيود الفن ، لأن الفن فى ذاته قيد ، وكان يضرب الأمثال فى ذلك بقوله إن المشى أسهل من الرقص ، ولكن الرقص دون المشى

هو الفن ، وإن الكلام أسهل من الغناء ، ولكن الغناء دون الكلام هو الفن ، فلا فن بغير قيد ، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال .

وبعد ، فأخشى ماأخشاه ، أيها القارئ ، أن تزعم أنني أنصفته ، لأنني من مدرسته . بل الحق أنني كنت من المدرسة النقيضة ، وهي مدرسة شوقي ، ولا أزال عليها ، ولا أفتأ أقول — على غير رأي العقاد — إن شوقي هو سيد القدامى والمحدثين بموسيقاه الفنية ، وأنا ممن يرون أن الموسيقى هي المادة الأولى في ملاط الشعر .

الشاعر الظريف

كامل الشناوى

كان كامل الشناوى بسمة على ثغر الحياة . . . لا تكاد تذكر يوماً من أيامه ، أو ليلة من لياليه ، إلا قفزت إلى شفتيك ابتسامة لنكتة قالها ، أو بيت طريف رواه ، أو « مقلب » هيأه لبعض أصحابه .

وكأن الله حينما خلق الهموم على الأرض ، شاء – من لطفه بعباده – أن يخلق قوماً موكلين بإزالتها ، ومن طلائعهم كامل الشناوى .

وله فى التفكه وقائع طويلة مع شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب ، رحمة الله عليه .

عاش الديب أكثر حياته – إن لم أقل كلها – جائعاً ، نصف عار ، بلا مأوى ولا دخل .

وكان كامل الشناوى فى مطلع حياته الأدبية سنة ١٩٣٢ ، يقيم فى بيت ذويه بأحد منعطفات شارع السد . بحى السيدة زينب ، وهو بيت قديم ، مؤلف من ثلاثة طوابق ، كان كامل وحده يحتل الدور الأول منه . وكان على رقة حاله فى ذلك العهد ، كريماً مضيافاً . فكان يؤوى الديب عنده أياماً طويلة ، ويقتسم طعامه معه . ولكنه كان لا يفتأ يتندر على الديب ويتفكه به طول مقامه عنده . وكان الديب على سعة صدره وخفة ظله وشدة حاجته ، يضيق أحياناً بفكاهات كامل ، فيثور ، ويترك البيت ، ويحتمل الجوع والعراء أياماً ، إلى أن يصالحه كامل ويعود به إلى البيت . من تندره عليه ، أنه كان يخرج

من جيبه عشرة قروش ، ويقربها من الديب ، ويقول للديب مشيراً إلى ورقة العملة :

— حضرتها . . . عشرة صاغ !

ثم يلتفت للورقة ، مشيراً إلى الديب ، ويقول لها :

— وحضرته الشاعر الكبير عبد الحميد الديب .

أى أن أحداً منهما لم يروجه الآخر أبداً . ثم يفعل مثل ذلك بقطعة من الصابون ، فيقدمها إلى الديب ، ويقدم الديب إليها ، يعنى أن الديب لم ير الصابون ولم يستحم فى حياته .

* * *

من الظواهر المشهورة فى الأدب المصرى بالذات ، أن الشاعر أو الأديب الذى يضحك كثيراً فى حياته ، يبكى كثيراً حينما يخلو إلى نفسه ، ويمسك بالقلم .

هكذا كان شاعر النيل حافظ إبراهيم . كان من أظرف ظرفاء عصره ، وكانت له نكات مشهورة . ومع هذا ، فإنه عندما ترجم . . . . ترجم « البؤساء » ... الكتاب الحزين لفيكتور هوجو . وعندمانثر ... كتب « ليالى سطيح » بحروف كأنها دموع وعندما نظم ، لم ينظم إلا الشجى والعذاب . وهكذا كان الشيخ عبد العزيز البشرى . وهكذا يفعل رامى . . . . فهو إذا حدثك ، فهو من ظرفاء عصره . ولكنه إذا نظم ، فأغنياته جمرات من اللوعة والحرمان .

وهكذا أيضاً كان كامل الشناوى ، الذى طالما ملأ الليالى بهجة

وإيناساً . . . . . كان إذا خلا إلى أعماق نفسه . . . سخط على كل شيء . . . بادئاً بيوم مولده ، فهو القائل فى عيد ميلاده :

عدت يا يــوم مولدى عدت يا أيهــا الشقى
الصبا ضاع من يــدى وغــزا الشيب مفــرقى
ليت يا يــوم مولــدى كنت يــوماً بــلا غد
أنا عمــر بــلا شباب وحيــاة بــلا ربــيع
أشترى الحب بالعــذاب أشتريه . . . فمن يبيــع

* * *

فى ذلك البيت الذى حدثتكم عنه ، بيت آل الشناوى بحى السيدة زينب ، عرفنا الندوة الأدبية فى أول عهدنا بالشعر .

وكان كامل عهدئذ قد تمرد على الأزهر الذى ألحقه به أبوه على غير رغبة منه ، وهجر الدراسة ، وتفرغ للثقافة العصامية يطلبها فى دار الكتب .

وكنا نجتمع فى « مندرة » البيت كل ليلة ، نسمع من كامل ما أعجبه من محصول يومه فى دار الكتب . وفى الحق أنه كان ذواقة نادر المثال . وكان من خير الرواة ، ومن أعذب الأصوات فى تلاوة الشعر ، إلى حد أن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا يطربان لإلقائه .

من أمثلة ما كان يلتقط من الشعر ويعيه فى تلك الأيام ، ونحن فى أول الصبا ، هذان البيتان للشاعر العباسى ، العباس بن الأحنف ، يقول لمحبوبه :

أستغفر الله، إلا من محبتكم فإنها حسناتى يوم ألقاه
فإن زعمت بأن الحب معصية فالحب أجمل ما يعصى به الله

* * *

ولد كامل الشناوى سنة ١٩١٠، فى قرية «نوسا البحر» . . . وهى قرية حالمة تنام على ذراع النيل، فى ظلال المنصورة الحسناء. وهذه القرية التى شهدت طفولته، هى التى رعت صبا شاعر آخر، هو المرحوم محمد الهمشرى، الذى قال فيها:

منك الجمال ومنى الحب يا نوسا فعللى القلب، إن القلب قد يئسا

أما المنصورة فهى مدينة الحب والجمال، ومهبط الشعر والخيال . . وفى رباها، غردت، أول ما غردت، أم كلثوم . . . وفى لياليها شبت موهبة عبد الوهاب . . . وفى مقاهيها غنى محمد السنباطى، ثم ولده رياض السنباطى نفسه . . . وفى جزيرتها . . . ترنم على محمود طه، شاعر الجندول، وإبراهيم ناجى، شاعر الأطلال.

فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٠، ولد كامل الشناوى وكأنه، من فرط سخطه على يوم مولده، ذلك اليوم الشقى، أبى أن يستقبله من جديد، وآثر أن يودع الحياة قبل أن يقبل ديسمبر بيوم واحد، إذ مات يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٥.

وكأنما كان كامل الشناوى على موعد دائم مع شهر ديسمبر . . . ففى ديسمبر السابق لوفاته، ولد ديوانه الأول والأخير . . . «لاتكذبى».

وأنت حينما تقرأ هذا الديوان، لاتحس بأنك قارئ ديوان شعر، قدر

إحساسك بأنك تستمع إلى مجموعة من الأغنيات الحلوة . حروف المطبعة تكاد تذوب أمام عينيك ، لترتسم مكانها علامات موسيقية . وعناوين القصائد . تكاد تثقب الورق لتطل من هذه الثقوب أعناق أم كلثوم وهي تدق على باب مصر ، وعبد الوهاب وهو يترنم بالخطايا ، وفريد الأطرش وهو ينشج بأنشودة « يوم مولدى » ونجاة الصغيرة وهي تهمس لنفسها : لا تكذبى .

وفى هذا الديوان ثمان وعشرون قصيدة ، ما لم يلحنه الملحنون منها ، لحنه وقع الكلمة فى الأذن والقلب . وكامل الشناوى شاعر مقل ، ينظم الشعر منذ عهد أبولو ، أى منذ سنة ١٩٣٢ . ومع هذا ، فإن ديوانه هذا لاينتظم أكثر من ثلثمائة وعشرين بيتاً ، هى كل ما نظمه فى اثنتين وثلاثين سنة أى بمعدل عشرة أبيات كل سنة !

وأبرز ظاهرة فى شعر هذا الديوان ، أنه فى أكثره شعر حب ، ولكنه لون من الحب لاتشم منه رائحة الجسد . ولاتلمس فيه أثر الجنس فى كيان الشاعر نفسه ، ولكنك تشم تلك الرائحة ؛ وتلمس هذا الأثر ، فى كيان حبيباته ، وفى كيان الرجال الآخرين .

فكل حبيبات كامل الشناوى — فى مرآة شعره — خائنات . وكأن قلبه لايتعلق إلا الخائنات ؛ وهو مكتف من الموقف كله بالسخط والغضب والثورة والعذاب والحرمان .

سألته مرة : ما سر شقائك فى الحب ؟

فردد لى البيت القديم المأثور :

وأما الملاح فيأبينـــنى	وأما القباح فآبى أنـــا

* * *

ولنستعرض صور بعض خائناته :

يقول كامل ، فى قصيدة « حبيبها » :

حبيبها . . . لست وحدك	حبيبها . . أنـــا قبلك
وربمـــا جئت بعـــدك	وربمـــا كنت مثلك

إلى أن يقول :

وعـــانقتنى . . وألقت	بـــرأسها فوق كتفى
تباعـــدت وتـــدانت	كأصبعـــين بـــكفى

* * *

وسرت وحدى شريـــداً	محـــطم الخـــطوات
تهـــزنى أنفـــاسى	تخيـــفنى . لفتـــاتى
كهارب ليس يـــدرى	من أين ، أو أيـــن يمضى
شك ، ضباب ، حطام	بعضى يمـــزق بعضى

* * *

ما أنت يا قلب ، قل لى	أأنت لعنـــة حـــبى ؟
أأنت نقمـــــة ربى ؟	إلى مـــتى أنت قلبى ؟

* * *

إنها صورة ممثلة . . .

وقد لاتكون ممثلة على مسرح ولا على شاشة . . . وقد تكون ،

ولكنها على أية حال امرأة تجيد تمثيل دور الحب على من يحبونها ، وهم كثر ، على حد اعتراف الشاعر .

ثم هو فى قصيدة « قلبى » يقول :

كيف يا قلب ترتضى طعنة الغدر فى الضلوع
وتدارى جحودها فى رواء من الدموع ؟
لست قلبى ، وإنما خنجر أنت فى الضلوع

ثم يصف هذه الغادرة ، وكيف هوت به خيانتها من القمة إلى السفح ، قائلا لقلبه :

أو تدرى بما جرى ؟ أو تدرى ؟ دمى جرى
جذبتنى من الذرى ورمت بى إلى الثرى

وبرغم هذا الغدر وهذه الخيانة . . . وبرغم هذا السخط وهذه الثورة . . . فإنه يحبها لأنه يحب الخائنات . ويعترف بهذه الحقيقة فى نهاية هذه القصيدة التى يخاطب فيها قلبه :

دمرتنى لأننى كنت يوماً أحبها
وإلى الآن لم يزل نابضاً فيك حبها
لست قلبى أنا إذن إنما أنت قلبها

* * *

وحول المحورين نفسيهما — محور الخيانة ومحور الرضا بالخيانة — تدور قصيدته « ظمأ وجوع » :

أحببتها ، وظننت أن لقلبها نبضاً كقلبى لا تقيده الضلوع

أحببتها فإذا بها قلب بلا نبض ، سراب خادع ، ظمأ وجوع
فتركتها ، لكن قلبي لم يزل طفلا يعاوده الحنين إلى الرجوع
وإذا مررت ، وكم مررت ببيتها تبكى الخطامى وترتعد الضلوع

* * *

قد يهمنا بعد ذلك أن نتقصى المدارس الأدبية التى أثرت فى منهاج هذا الشاعر.

خمسة شعراء ، تركوا بصماتهم فى نفس كامل الشناوى ، أو فى شعره . هم الشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو نواس ، وإيليا أبو ماضى ، وأمير الشعراء أحمد شوقى .

١ – الشريف الرضى : بكبريائه . . كان الشريف لا يخشى أن يشمخ أمام الخليفة ويقول له فى إباء :

عفواً أمير المؤمنين ، فإننا فى دوحة العلياء لانتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً ، كلانا فى المفاخر معرق
إلا الخلافة ميزتك ، فإننى أنا عاطل منها ، وأنت مطوق

أحب كامل فى الشريف هذه الكبرياء ، وأحب الكبرياء .

مرة ، روى لى أنه مفتون بمضيفة فى فندق هيلتون : هى التى نظم فيها قصيدته التى عنوانها « فى الكافتريا » . . . ويقول فيها :

مرت بنا كالطيف تسألنا ماذا نريد ، فلذت بالصمت
ودنت لتسألنى على حدة عما أريد ، فقلتها : أنت

غضبت ، وألقت نظرة نزعت   قلبي ، وشدته إلى فمها
يا ليته يقوى يقبلها   ياليته ينساب فى دمها
وأردت أرضيها ، فقلت لها :   هل تعرفين ومن أكون أنا؟
أنا يا صبية شاعر هرم   قد جاء يستوحى الشباب هنا

* * *

أريد إلهامة جديده   بقدر ما أنظم القصيده

* * *

فافتر ناظرها ومبسمها
وقصيدتى ما زلت أحلمها
وأظل طول العمر أنظمها

* * *

وذهبت معه إلى الكافتريا ، لأرى فاتنته وملهمته .

كانت شابة لطيفة ، خضراء العينين ، وليس فيها بعد هاتين العينين الخضراوين ، ما يستهوى شاعراً إلى حد الاستلهام ، إلا شيء من الاعتداد بالنفس .

ومكثنا نحو ساعة ، ثم هممنا بالانصراف ؛ وتركنى كامل أؤدى حساب ما أخذناه ، هامساً لى : « سترى » .

وأديت الحساب ، وتركت فى الصحن الإكرامية الواجبة لمثلها ، والتى نتركها عادة لكل زميلاتها ، فإذا وجهها يحمر خجلا ، وإذا بها

تدفع بما فى الصحن نحو يدى قائلة فى أدب وحزم : « متأسفة » وتولى مدبرة .

وقال لى كامل : أرأيت ؟ إنها الوحيدة هنا ، التى ترفض أية إكرامية . . كبرياء . . وأجمل مايفتننى فيها ، هذه الكبرياء .

ولحبه للكبرياء ، يقول فى قصيدة عنوانها « لست عبداً » :

علام يا قلب تشكو نقض الحبيب عهوده
دع الهوان وحطم أغلاله وقيوده
يا فتنتى لست عبداً ولا أطيق العبوده
كونى الجحيم سعيراً فلن أكون وقوده

ويقول فى قصيدة أخرى :

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء .
وهى قيد ترسف العزة فيه والإباء
أنا لا أشكو ففى الشكوى انحناء
وأنا نبض عروقى كبرياء

* * *

٢ ــ والشاعر الثانى أبو العلاء المعرى بحيرته وتشاؤمه . . . وكل فلسفته .

فقد عانى كامل الشناوى شظفاً فى أول حياته ، ثم لانت له الحياة ، ولكنها لم تلن لبعض إخوته ، بل لعلها قست على اليتامى من أبناء بعض إخوته ، فأسى كامل لهم ، وأعالهم وكفلهم ، وبر بهم كل البر ، وأحس

مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة ، آخذاً بقولى أبى العلاء :

هذا جناه أبى علىّ … وما جنيت على أحد

أما حيرة أبى العلاء ، فمنها حيرة كامل الشناوى فى مثل قوله :

زعموا حبى يا قلب خطايا … لم يطهرها من الإثم بكايا
والخطايا مالها من غافر … فترفق ، وتمهل فى الخطايا

كما تأثر بأبى العلاء فى تشاؤمه ، وإن كان يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم فى مقدمة ديوانه قائلا : « إن المجانين وحدهم هم الذين لايضحكون للحياة » .

وما أعرف أحداً ضحك للحياة فى حياته قدر ما ضحك كامل ، وأضحك من حوله . ولكنه كان أشد الناس حزناً متى خلا إلى نفسه ليكتب شعراً أو نثراً .

من تشاؤمه ، قوله :

دمعتى ذاب جفنها … بسمتى مالها شفاه
صحوة الموت ما أرى … أم أرى غفوة الحياه ؟

* * *

٣ ـ والشاعر الثالث أبو نواس . . . أثر فى حياته ، بعيداً عن الشعر . فقد عاش كامل نواسيًّا يحبُّ الليل وكل ما يحتضن الليل .

كل ما بين الرجلين من خلاف ، أن النواسى كان حسيًّا ، مغرقاً فى المعصية ، أما كامل ، فقد غلبت روحانيته على حسيته .

وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبى نواس ، وقد حفظ شعره

ودرس حياته دراسة نفسية مفصلة ، وأزمع أن يكتب له سيرة بأسلوب جديدفى روايةالسيرة ، ونشر بعض فصول من هذا الكتاب فى بعض الصحف.

٤ — ثم . . إيليا أبو ماضى .... داعية مذهب اللاأدرية فى الشعر العربى ، وصاحب قصيدة « لست أدرى » المأثورة .

لقد أثرت لاأدرية أبى ماضى أيما تأثير فى تفكير كامل الشناوى الشعرى ، فهو يقول فى إحدى قصائده :

إلى أين نمضى أيها الدهر بعد ما نصير هباء ، لاضجيج ولا صمت
وينسل منا الحب والخير والهوى وينسل منا الشر والغى والمقت ؟
إلى أين يمضى شيبنا وشبابنا إلى أين يمضى الومض والنبض والصوت ؟
وفى أى قبو منك خبأت من مضـــوا وأبعدت مثواهم فراحوا ولم يأتـــوا؟
وفى أى يوم نلتقى بهمو ؟ أجـــب فقد هدنا شوق وعذبنـــا كبت

خمسة أسئلة فى هذه الأبيات القليلة . . . يتساءلها الناس منذ آدم ، ويظلون يتساءلونها حتى الإنسان الأخير. . . ولاجواب عنها أكثر إقناعاً من هاتين الكلمتين : لست أدرى .

ويوغل كامل فى التسآل عن هذه الغيبيات ، فيقول فى قصيدة يسأل فيها من يكون « أنا » :

يارب فيم خلقتنا نهب الضباب
. . . فلا ظـــلام ولاسنـــا ؟
وندب فوق الأرض لا ندرى بها
وندب فوق الأرض لا تدرى بنا

أنـــا من أنـــا ؟ أنـــا من أكون ؟
وسيلـــة ... أم غـــايـــة ؟
أنـــا لست أعـــرف من أنـــا !

٥ — وأخيراً . . . أمير الشعراء شوقى .

وكان كامل الشناوى يقول ، كما نقول نحن ، إنه أستاذنا الأول والأخير ، وإنه سيد الأولين والآخرين ، بموسيقاه السحرية ، ببيانه المشرق ، بخياله الخصب . . . بنتاجه الضخم . بمسرحياته الخالدة . . . بجده وعبثه . . . بإسلامياته وغرامياته . . . بمصريته وعروبته وإنسانيته . . . بمحافظته وتجديده .

مرة . . . هاجم أحد النقاد المحدثين من دعاة الشعر الجديد شوقى فى يوم ذكراه ، وقال إنه لو عاش فى زماننا هذا ما كان له شأن يذكر .

وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الخسيسة . وقال لى كامل الشناوى كلمة كفكفت دمعى . . . قال :

— لاعليك . . . إذا رأيت الموتى ينقدون الأحياء .

شاعر النيل

محمد حافظ إبراهيم

إذا أردت ترجمة صادقة لحياة شاعر النيل ؛ حافظ إبراهيم ، فخير ترجمة لحياته قد كتبها المرحوم الدكتور أحمد أمين فى مقدمته لديوان حافظ الذى أصدرته دار الكتب المصرية .

أما الذى أقدمه لك هنا ، فأضواء على نواح من حياة حافظ لم يسجل أكثرها نقاد الأدب ومؤرخوه ، فبقى فى ذواكر المعاصرين والرواة .

* * *

كان حافظ شاعر الثورة .

وأنا إذ أقول هذا ، إنما أعنى هذه الثورة التى نعاصرها بالذات ، ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . برغم أنه مات قبلها بعشرين سنة .

فإن سألتنى عن صلته بهذه الثورة ، قلت لك :

إن حافظاً . . . . الشاعر المصرى الشعبى ، ولد على ماء النيل لا على شطآنه ، بعائمة فى بلدة ديروط ، بمحافظة أسيوط . . . . نفس الإقليم الذى أنجب زعيم هذه الثورة ، جمال عبد الناصر .

ولم يعرف له تاريخ ميلاد ، وإن كانوا قد سننوه ، فقدروا أنه ولد فى يوم ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ .

أما تاريخ وفاته ، فهو يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ . . . وهكذا ارتبط تاريخه بشهر يوليو ، وبيوم ٢١ يوليو بالذات ، وهو اليوم الذى

ائتمر فيه الثائرون ليتأهبوا للوثبة الكبرى فى تاريخ مصر .

وقد لمعت مواهب حافظ الأدبية منذ حداثته ، ومارس المحاماة وهو دون العشرين بكثير ، وهى يومئذ مهنة لاتتطلب ثقافة خاصة . ثم حببت نزعته الوطنية الفروسية إليه ، فالتحق بالمدرسة الحربية ليحمل السيف يذود به عن حياض الوطن .

وسرعان ما أصبح الضابط الشاب ، محمد حافظ إبراهيم ، فى طليعة الضباط الأحرار ، وكان عددهم ثمانية عشر ضابطاً ، أرادوا أن يثبوا على الاستعمار الإنجليزى وأعوانه فى السودان ، فتزعموا ثورة السودان ، وأيدهم الخديو عباس فى السر دون الجهر ، فلما أخفقت الثورة خذلهم الخديو وتخلى عنهم ، وأحيل حافظ إلى الاستيداع ، ثم إلى المعاش ، وهنا ذاق مرارة الجوع والحرمان .

* * *

ثم دعك من كل هذا ، وانظر كيف رسم حافظ فى شعره الخطوط العريضة نفسها التى آمنت بها ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، قبل قيام هذه الثورة بنصف قرن من الزمان .

إنه يصرخ فى قومه ليفيقوا من غفوتهم ويؤمنوا بمصريتهم قبل إيمانهم بغيرها ، ويدعو إلى إلغاء الألقاب والرتب والعبث الذى لا يجديهم شيئاً :

أنــا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتّ أشكو النوبا
أمة قد فتّ فى ساعدها بغضها الأهــل وحب الغربا

تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدّى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب (القوم) بها أم بها صرف الليالى لعبا
والقوم هنا هم الإنجليز . . . .

ثم هاهو ذا يحمل على الأخلاق السياسية المنحلة فى عصره حملة شعواء ، ويصيح صيحة التطهير ، حين يتعرض لانحدار الصحافة ولوذ الساسة بالقصر ودار السفير البريطانى ، فيقول :

«وكم ذا بمصر من المضحكات» كما قال فيها «أبو الطيب»
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تمن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب

ثم يمسك بمعول الثورة لينقض به على الإقطاع انقضاضة متكررة فى أكثر من قصيدة ، على حين أنه لم يتعرض أحد من شعراء عصره لهذه الظاهرة التى كانت قوام الحياة فى مصر يومئذ :

يقول فى قصيدة «الامتيازات» :

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب
وذى الإرث يكاثرنا بمال غير مكتسب

وفى قصيدة أخرى ، يصف حريق ميت غمر ، فيرسم صورة للآلاف من البائسين المعرقة بعد احتراق القرية ، ثم يهيب بأحد الإقطاعيين

— وهو المنشاوى باشا — أن يتحرك ضميره لمأساة هؤلاء العفاة . وكان المنشاوى يحتفل يومئذ بعرس فى بيته تتحدث بأضوائه الركبان .

يقول حافظ :

أيها الرافلون فى حلل الــوشى ، يجرون الذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعـاً يتوارون ذلــة وانكسارا
قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً مـلأ العين والفؤاد ابتهـارا
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضـارا
وسمعنا فى « ميت عمر » صياحاً ملأ البر ضجـة والبحـارا
جال من قسم الحظوظ ، فهذا يتغنى ، وذلك يبكى الديارا

* * *

كانت مجالس الأدب فى الجيل الذاهب لاتذكر اسم حافظ إلا مقترنا بشوقى ، ولاتذكر اسم شوقى إلا مقترنا بحافظ ، حتى كأنهما توأمان .

وكان شوقى — فى أعماقه فى الأقل — لايطرب لسماع اسم حافظ مقترناً باسمه ، فقد كان يحس أن الشوط بينهما بعيد . ولعله أسر بهذا لبعض خاصته ، فنقل القول إلى حافظ ، فساءه ، فصاح يقول :

— « يله يا عالم . . . شوقى يقول كده ، والناس بقى لها تلاتين سنة تقول شوقى وحافظ ، زى ما تقول سميط وجبنة ؟ »

بدأ حافظ حياته الأدبية يقلد شاعر الجيل الأسبق ، رب السيف والقلم محمود سامى البارودى . وقد أمعن فى تقليده لأنه شاء أن يكون

خليفته ، ربًّا للسيف والقلم أيضاً .

ولعله تطلع إلى أن يبلغ ما بلغه البارودى ، وزيراً للحربية ، ثم رئيساً للوزارة ، حين هجر المحاماة ودخل المدرسة الحربية .

ولكن حياة حافظ العسكرية بكرت بالأفول ، فجافاه هذا الأمل ، ولاسيما بعد أن شهد هزيمة العرابيين ونهاية البارودى الحزينة .

وكان نجم شوقى قد تألق . فراح حافظ يرسم لنفسه أمثولة جديدة غير أمثولة البارودى ، هى أمثولة شوقى ، فسار على غراره ، وقلده فى أغراضه ، حتى لقد حاول أن يقتحم عليه أجواءه .

كان شوقى شاعر القصر ، المقرب إلى رب القصر ، فتمنى حافظ لو أنه صرع شوقى فى حلبة القصر ، وانتزع منه هذا اللقب ، فراح يمتدح الخديو ، ويهنئه بالمواسم والأعياد ، ويدعو له ولولىّ عهده عبد المنعم .

ولكن كل ذلك لم يبلغه أملا .

بيد أنه بدلاً من أن يستريح ، أو يتواضع فيما يأمل ، راح يحلم بأن يبلغ شأواً أعظم من شأو شوقى . راح يحلم بأن يصبح شاعر الخليفة فى الآستانة ، فتوجه إليه بالقصائد الطوال . لعله يصبح شاعر الباب العالى ، لا شاعر الوالى فحسب . . . ومن ثم تكون له السيادة على شوقى . غير أنه أخفق فى هذا الحلم أيضاً ، فارتد على عقبيه ، وتواضع كل التواضع ، وانطوى فى محيط ضيق ، يمدح الوزراء والسراة والأعيان .

وكان البؤس قد حط عليه بعد خروجه من الجيش ، فقد خرج بمعاش

لا يزيد على أربعة جنيهات . فوصله شوقى وحدب عليه ، وسعى له عند داود بركات ليعينه محرراً بالأهرام ، فلم يفلح ، فخاطب القصر فى شأنه ، فجعل القصر له راتباً ظل يصرف له حتى نهاية حياته .

ومن هنا لان ناب حافظ مع القصر ، فامتدح فؤاداً كما امتدح حسيناً كما امتدح عباساً من قبل . ومن هنا أيضاً لان حافظ مع شوقى ، فكان يعترف له بالإمارة جهراً ، وإن كان يحفظ عليه فى سره .

أما اعترافه لشوقى بالإمارة ، فشواهده كثيرة. منهاقوله فى مدحة للخديو عباس :

لم يبق « أحمد » من قول أحـــاوله   فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

وقد درج حافظ على هذه السياسة ، حتى لا تكاد مدحة واحدة من مدائحه الخديوية أو السلطانية أو الملكية تخلو من إشادة بشوقى .

ولعله أراد بذلك أن يأمن غدر شوقى ويضمن رضاه ، فرضاه من رضا القصر . . . .

ولعله أراد أيضاً أن يؤكد للناس ، أوللتاريخ ،أن إمارة شوقى سندها الأول هذا القصر .

على أن له فى شوقى مدائح كثيرة ، بعيدة عن ذكر القصر ، أشهرها وأبهرها وقفته ليلة مبايعة شوقى بإمارة الشعر ، يلقى السلاح ويعترف الاعتراف الأخير :

أمير القوافى قد أتيت مبايعـــاً   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

* * *

هذا ما كان فى الجهر . . . فماذا كان وراء الجهر ؟

إن كلا الرجلين كان يعرف قدر نفسه وقدر أخيه . ولكن الطموح أفسد نفس حافظ على صاحبه بعض الزمن . فلما غلبه اليأس ، داراه وماراه . ولذعه كثيراً فى غيبته بالشعر والنكتة فى مجالسه الخاصة ، وإن يكن استسلم له فى الجهر ، واعترف له بالإمارة .

أما شوقى ، فلم يكن يخشى أن يقفز حافظ إلى مكانته يوماً ما ، ولكنه كان يخشى لسانه . فوصله وأحسن إليه ، وهناك أيضاً حقيقة نفسية هامة ، هى أن شوقى كان ينفس على حافظ شيئاً واحداً . ذلك أن شوقى كان يعجز عن إلقاء قصائده ، فيعهد بهذه المهمة إلى غيره .

أما حافظ ، فقد كان صناجة ، وكان يلقى قصائده ، فيهز أعواد المنابر ويأخذ بمجامع القلوب . هذا ، إلى أن حافظاً كان يملأ المجالس بهجة ، ويستأثر بأسماع الحاضرين بنكتته اللاذعة وبديهته الحاضرة وحديثه الحلو ، على حين كان شوقى خامل المجلس ، كأنه عيى اللسان !

وقبل أن أنتهى من الحديث عن الشاعرين ، أقول إن حافظاً قد حاول أن يحلق فى أجواء شوقى الواسعة ، فكبا كثيراً ، وكانت أكبر كبواته مدائحه فى ملوك الإنجليز .

وحاول أن يحذو حذو صاحبه فى رثاء أعلام الغرب كتولستوى وغيره ، وفى الإشادة بالأحداث العربية القديمة والعالمية الحديثة ، ولكنه لم يصل إلى شىء من سماء شوقى . فلما أن تحول إلى الأحداث المصرية الجليلة ، أبدع وأجاد ، وصح أن يقترن اسمه باسم أمير الشعراء .
وأحب هنا أن أسجل رأياً للأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد فى

شوقى وحافظ ، أورده عميد الأدب طه حسين فى بعض كتبه .

قال العميد : « كنت مرة عائداً مع الأستاذ أحمد لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ . قبل أن يموت شوقى . وكنا نتحدث فى أمر الشاعرين ، فقال لطفى بك : لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شوقى عنها . كنت ألقى حافظاً فى أول عهده بالشعر ، وكان يسمعنى كثيراً من شعره فلا يعجبنى . فقلت له ذات يوم (أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً) ولكنه لم يقبل نصحى ، وحسناً فعل . فما زال يجد ويكدح حتى أرغم الشعر على أن يذعن له ، وأصبح شاعراً . وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقى ، أقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة ، وأثنى عليه كلما لقيته . فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره ، حتى ساء ظنى بشعره الأخير » .

هذا هو رأى لطفى السيد ، الذى رواه طه حسين وأقره عليه . ولا شك أنه رأى متعسف ، فعندى وعند غيرى من المنصفين أن الشعر العربى لم يشهد أروع من مسرحيات شوقى الشعرية التى نظمها فى أخريات سنى حياته .

* * *

وقبل أن اختتم هذه السيرة ، أحب أن أسوق بعض نقاط تلقى أضواء بارزة على حياة صاحبها .

« كان حافظ « مقطوعاً من شجرة » كما تقول العامة . مات أبوه وأمه ، فكفله خاله ، ثم ضاق بمقامه وطعامه ، فخرج حافظ من البيت

وقد ترك لخاله هذين البيتين : .

ثقلت عليك مئونتى إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجه فى داهيه

ولم يعرف له أحد فى أواخر أيامه أحداً من الأهل غير زوجة خاله ، التى كانت تقيم معه فى بيته بحلوان، تطهو له وترعاه ؛ وكان أصحابه الذين يسمرون معه كل ليلة ، محمد البابلى ، ومحمد المويلحى ، وعبد العزيز البشرى وغيرهم من ظرفاء العصر ، يشهدون لها ببراعة الطهو ، إلى أن ماتت وخلفته وحيداً فى الحياة .

والذى يقرأ خمريات حافظ ، يعتقد أنه كان سكيراً مدمنا وشواهد شعره فى هذا كثيرة أشهرها قوله :

أسقنا يا غلام حتى ترانا لانطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وقوله فى رسالة بعث بها إلى بعض أصحابه إذ هو ضابط بالسودان :

فتية الصهباء خير الشاربين جددوا بالله عهد الغائبين
واذكرونى عند كاسات الطلا إننى كنت إمام المدمنين

والحقيقة ، كما أكدها لى صديقه وصفيه المرحوم فؤاد شيرين باشا ، أن حافظاً كان مقلاً كل الإقلال فى الشراب ، وكان إذا شرب كأساً حاول أن يخلص من أثرها بسرعة .

أما خمرياته فلعلها أثر من آثار تقليده لكبار الشعراء ، وفى طليعتهم شوقى .

* كان حافظ أكثر الناس مرحاً ، وكان هذا المرح يضفى على مجالسه شعشعة باهرة ، حتى لقد قال العقاد حين وقف على قبر حافظ يرثيه :

أبكاء وحافظ فى مكان ؟ تلك إحدى عجائب الحدثان

ومع هذا فشعر حافظ ونثره نسيج من الأحزان والهموم ، حتى لقد كان يقول دائماً : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا كنت محزوناً » .

* تزوج حافظ مرة ، ولم يدم زواجه إلا بضعة أشهر ، ثم لم يكرر غلطته قط . أما شائعة تشبيبه بالغلمان فقد كان مصدرها حبه للتندر ، دون أن يكون لها أثر فى حياته مطلقاً ، كما يؤكد صديقاه فؤاد شيرين وأحمد رامى .

* كان كل من حافظ ومطران يباهى صاحبه بأنه أجمل منه ، مع قلة حظهما معاً من الجمال ، وقد اختلفا فى ذلك يوماً ، فاتفقا على أن يوقع كل منهما عريضة من أعيان القاهرة تشهد بأنه أجمل من صاحبه .

وذهب مطران إلى السيد عبد الحميد البنان ليوقع له عريضته ، فرفض ، فما زال يلح به حتى أقر له بما يريد ، وكتب له فى النهاية « المقر بما فيه رغم أنفه » وهذه إشارة إلى أنف مطران ، وهى كما يعلم الناس شوهاء .

حافظ — عدا ديوانه — ترجمة كاملة لمسرحية شكسبير « ماكبث » نشر جزء منها فى ديوانه . أما الباقى فقد ضاعت معالمه ، وكانت ترجمة يختلط فيها الشعر بالنثر . وقد أعانه على الترجمة من الإنجليزية صاحبه فؤاد شيرين .

وله إلى جانب ذلك ترجمة رواية « البؤساء » فى جزأين ، صدر ثانيهما بعد الأول بعشرين سنة . وقيل إن الأستاذ الإمام محمد عبده كان يساعده فى ترجمة هذا الكتاب ، لضعف فرنسية حافظ .

ثم إن له كتاب « ليالى سطيح » . وكتاباً آخر فى الاقتصاد السياسى ، اشترك فى ترجمته مع خليل مطران .

* كان حافظ على فقره متلافاً إذا جاءه المال ، إلى حد أنه تسلم يوماً ألفين من الجنيهات من وزارة المعارف حينما قررت تدريس ترجمته للبؤساء فى المدارس . وقد أنفق المبلغ برمته فى شهر واحد .

* على الرغم مما كان بين شوقى وحافظ ، شاء الموت أن يضمهما فى عام واحد ، هو عام ١٩٣٢ . وقد سبق حافظ صاحبه إلى طريق الله ، فنظم فيه شوقى مرثيته الرائعة ، التى مطلعها :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يا منصف الموتى من الأحياء !

شاعر الحضارة الريفية

م. ع. الهمشرى

ما عرفت شاعراً يحب الحياة ويفرّ من الموت كهذا الشاعر ، رحمه الله . . .

كان يحب الحياة وينهبها نهباً .. وقد يضلك من أمره أنك لا تجد فى شعره أثراً لضحكة أو ابتسامة . بل لعلك واجد كل ما هو عكس ذلك ، من تجهم وتشاؤم ، وحديث عن الموت ، ونبوءات بدنو أجله . وحسبك من ذلك أن تقرأ ملحمته « شاطئ الأعراف » ، لتجده يتمثل كلمات « الموت » و « المنايا » و « المنون » وكل ما يؤدى هذا المعنى أكثر من مائة مرة فى قصيدة واحدة !

ثم تقرأ بقية شعره ، فلا تجد له قصيدة واحدة خلت من ذكر الموت ، وهو القائل :

غداً يا خيالى تنتهى ضحكاتنا وآلامنا تفنى ،وتفنى المشاعر
وتسلمنا أيدي الحياة إلى البلى ويحكم فينا الموت ، والموت قادر

* * *

ولد الهمشرى ميلاداً شاعرياً : على شاطئ رأس البر ، سنة ١٩١٠ . ومات ميتة خاطفة وهو فى عمر الزهور ، سنة ١٩٣٨ . وبرغم أنه لم يعش أكثر من ٢٨ سنة ، فقد خلف وراءه تراثاً شعرياً ، قوامه أكثر من ألف بيت ، يعد ذخيرة من أجمل ذخائر الشعر المعاصر .

* * *

كان اسمه الكامل : محمد عبد المعطى الهمشرى . غير أنه كان يؤثر أن يوقع تحت قصائده على هذه الصورة : « م . ع . الهمشرى » أسوة بما كان يفعله شاعره الأثير فى الأدب الإنجليزى ب.ب.شلى .

ولو كانت الأمور تجرى مجراها الطبيعى فى حياة الناس . لكان الهمشرى شاعراً أعجمياً . ولعاش على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط . ليضيف التراث الذى خلفه وراءه ، لا إلى الأدب العربى . بل إلى أدب تلك الدولة الصغيرة ، ألبانيا ، التى ولد فيها جده . أحمد الهمشرى ، قبل أن ينزح إلى مصر .

ولكن هذا الجد ، لظروف لا نلم بها ، هاجر إلى مصر ، وطاب مقامه فيها ، ورزق فيمن رزق من البنين ، عثمان الهمشرى والد الشاعر .

تزوج عثمان الهمشرى سيدة تركية ، رزق منها ابنة واحدة ، ثم لم تطب حياته معها . ولعل سر هذا أنها لم تنجب له ولداً . فاهتدى إلى الزوجة الثانية . وتخيرها هذه المرة من أسرة مصرية من المنصورة ، اشتهر أفرادها . المتعلم منهم والأمى على السواء . بالذكاء والألمعية .

كانت هذه الزوجة الثانية ، هى السيدة عائشة ، شقيقة الكاتب الكبير الأستاذ محمد التابعى . صاحب الأسلوب الفرد فى النقد والسخرية ، ومنشىء المدرسة الأثيرة فى عالم الصحافة .

وأثمرت هذه الزيجة خمسة أولاد وبنتاً ، كان أولهم شاعرنا م . ع . الهمشرى .

* * *

نشأ شاعرنا فى المنصورة . . .

والمنصورة أرض طيبة ، تنبت الشعر والجمال ، وتلهب الحب والخيال ، ويشتهر رجالها بالظرف والذكاء ، والإغراق فى حب الأدب والفن ، كما تشتهر نساؤها بالجمال والخفة والشاعرية .

وكانت سماء المنصورة يومئذ تجلجل بالشعر . كان فيها على محمود طه المهندس ، صاحب أنشودة الجندول ، وكان فيها أيضاً الدكتور إبراهيم ناجى ، شاعر اللهفة العاطفية .

فى هذا الجو الحالم ، نشأ الهمشرى ، وبدأ يغرد ويردد أغانى الحب .

وكانت بين حسان المدينة يومئذ شابة حلوة ، أصلها من قرية قريبة من المنصورة ، تتكئ على ذراع النيل ، اسمها « نوسا البحر » . . . التى ولد بها كامل الشناوى كما روينا من قبل .

كان اسم الصبية المدللة « توحة » . . وكان يحلو لها أن تخرج ساعة العصر من كل يوم ، فتسير فى شوارع المنصورة ، وقد لفت جسدها الغض بملاءة حريرية سوداء هفهافة كبنات البلد — مع أنها لم تكن منهن — وتتبختر فى مشيتها بخترة تذيب قلوب الشباب ، ولا تضن على أحد منهم بنظرة عابثة ، أو ابتسامة مغرية ، ترسلها من خلف نقابها الشفاف .

ويقولون إنها كانت بطلة الكثير من القصص فى المدينة . ولكننا — أنا والهمشرى — كنا لانزال تلميذين صغيرين فى المدرسة ، دونها سنًّا ، وهى فى أجمل أيام الشباب ، فى نحو العشرين . فلم يكن لنا أن نظفر منها بواحدة من هذه القصص التى ينسبونها إليها ، إن صدقاً وإن كذباً . ولكننا كنا نكتفى منها بالنظرة العابثة والابتسامة المغرية دون أن نطمع فى أكثر من هاتين ، لنتخذ منهما وحياً لشىء ننظمه .

وذات يوم ، نظم الهمشرى قصيدة عاطفية من أرق شعره ، وجعل عنوانها « إلى نوسا » وهو اسم قرية « توحة » قال فيها :

منك الجمال ومنى الحب يانوسا   فعللى القلب ، إن القلب قد يئسا
يا حبذا نسمة من توحة خطرت   أطالت النفس من أسبابها النفسا

ولم يدر بخيالنا ، ونحن نقرأ القصيدة ، ونرى ما فيها من حديث عن الحب اليائس ، والقلب الذى تحول إلى برق ، أكثر من أن الهمشرى شاعر ، وللشاعر أن يحلم ما شاءت له أحلامه ، وللشاعر أن يتصور فى الخيال مالا يبلغه فى الواقع ، وللشاعر أن يعذب نفسه ما يعذبها من أجل محبوب لايحس وجوده ولاعذابه .

ذلك هو الأمر كما كان فى أوهامنا . ولكنه كان أجلّ من ذلك فى حقيقته التى لم يحدثنا عنها قط ، إلى أن مات ، فأسر إلينا بها ذووه .

وما كان لى أن أذيع بعض نبأ هذه الحقيقة ، لولا أننى مضطر إلى إزاحة بعض الآثار عنها بالقدر الذى تتطلبه أمانة التاريخ الأدبى ،

والذى يكمل إلقاء الضوء على مصدر أكبر عمل فى حياته الأدبية ، وهى ملحمة « شاطئ الأعراف » .

فالحقيقة أن « توحة » لم تكن هى بطلة قصيدة « نوسا » . وإنما أقحم اسمها إقحاماً على القصيدة لكى يستطيع من كل قلبه أن يتحدث عن نوسا « بغير كثير من الحرج » .

كان له فى « نوسا » أمل .

ذلك أن زوج خالته كان عمدة « نوسا » وكانت هذه هى الصلة التى ربطته بنوسا منذ طفولته .

وكانت بين أترابه طفلة صغيرة فى مثل سنه ، أو أقل قليلا . هى ابنة بيت من البيوتات الكريمة فى نوسا .

كانا يلعبان معاً فيمن يلعب من أبناء القرية وبناتها إذ هم صغار يطيرون فى الحقول كالفراشات . يتعقبون الفراشات ، ويسرحون ويمرحون فى براءة الطفولة .

ثم كبر الزمن ، وكبر الهمشرى وكبرت هى معه . حتى بلغا اليفاعة ، فوجب عليها — وهى ابنة الأسرة المحافظة — أن تحتجب فى خدرها . ولم يكن الهمشرى يدرى ، إذ هو يكبر مع الزمن ، أن عاطفته نحوها تكبر معه . فكان يكثر من التردد على القرية الهادئة ، يتنسم أخبار صغيرته ، التى كبرت . ويسعده أن يلمح طرفها من نافذة بعيدة ، ويعود ليملأ الدنيا بحبها شعراً وغناء .

هذه — لا توحة — هى الملهمة الحقيقية لقصيدة « نوسا » .

وما اسم « توحة » فى القصيدة إلا تمويه ، حرصاً منه على قداسة الحب الوحيد الذى عاش فى قلبه إلى أن سكت هذا القلب .

وكانت قصيدة « توسا » هى آخر ما نظمه الهمشرى فى حياته من الشعر العاطفى بعد أن عاد إلى توسا ذات يوم . فعلم أنه فقد حبه إلى الأبد ، إذ زفت حبيبته إلى غيره . وكان يتمناها لنفسه ، فانقطع الأمل !

* * *

انتهى الشاعر العاطفى . . .

وهجر الهمشرى كلية الآداب . والتحق بوظيفة بالتعاون . . وكان التعاون يومئذ تابعاً لوزارة الزراعة .

كانت وظيفته تحرير مجلة « التعاون » وقد عرف الهمشرى مكانه من الحركة التعاونية منذ البداية : إذ قرأ سيرة الشاعر الأيرلندى الكبير « جورج راسل » الذى وهب حياته وشعره وفنه للكفاح ضد الاستعمار البريطانى . وضد الرجعية والإقطاع ، وحمل رسالة الدعوة التعاونية والحضارة الريفية ، على صفحات مجلته « الدولر الأيرلندى » التى كانت مجرد مجلة ريفية ، فجعل منها راسل مجلة عالمية . تحمل رسالة الحضارة الريفية إلى جميع أنحاء أوربا وأمريكا !

وتتلخص رسالة الحضارة الريفية فى الدعوة إلى بث النزعة الديمقراطية فى أهل الريف عن طريق التعاون والقضاء على الجوع والفقر والجهل بينهم ، ونقل مزايا الحضارة — دون سوءاتها — من المدينة إلى القرية

بإنشاء المدارس والمسارح والأندية وقاعات المحاضرات والمستشفيات، وتعبيد الطرق وتعميم الإضاءة الكهربائية ومياه الشرب النقية وتهذيب الشواطىء ، وتجميل الحياة ، والإهابة بأعيان الريف—وكان يسميهم « الهاربون من الميدان » للعودة للريف ، ليعملوا على ترغيد الحياة فيه .

آمن الهمشري بهذه الدعوة، فحمل رسالتها على صفحات مجلة التعاون .

وعلى الرغم من أنها كانت مجلة حكومية ، تابعة للدولة الملكية الحزبية الرجعية فى ذلك الوقت ، فإنه حمل على هذه العناصر حملة شعواء فى شجاعة بالغة .

جند الهمشرى سلاحيه ، المقالة والقصيدة ، لتحقيق هذه الدعوة . جعل المقالة للدعوة الإيجابية ، تحقيق الحضارة الريفية ، وجعل القصيدة للدعوة السلبية ، وهى الإشادة بجمال الريف ، والتغنى بمزاياه .

وبعد أن كان شاعر العاطفة ، كما أسلفنا القول، أرست النهاية اليائسة لقصة حبه فى « نوسا » نهايته كشاعر عاطفى ، وأعلنت ميلاد أعظم شاعر ريفى فى تاريخ الأدب المعاصر ، يتغنى بالربيع فيها ، ولياليها المقمرة ، وأشجار النارنج التى تملأ أجواءها بالعطر ، ونخيلها المتطلع إلى السماء ، وإشراق الشمس وطلوع القمر ، وأحلام الفجر ومسارح الشفق ، كما لم يغن شاعر آخر من قبل ، ويقتحم أخيلة وألفاظاً ومسميات جريئة لم يقتحمها

شاعر من قبل ، فى مثل هذه الأنشودة الريفية ، التى يصور بها غناء الفلاح لجاموسته :

تنقلى تنقـــلى من جدول لجـــدول
جاموستى ياساحره جوبى الحقول الناضره
تنقلى . . . تنقلى
يشدو لك العصفـــور ويهمس الغـــدير
تنقلى . . . تنقلى
خطوتك الحسنـــاء يمشى بهـــا الرجاء
تنقلى . . . تنقلى

تنقـــلى فى الـــريف وبالمروج طـــوفى
تنقلى . . . تنقلى
جوبى مع الصباح يا منيـــة الفلاح
يـــا ظبيـــةالبطـــاح تنقلى .. تنقـــلى
من جدول لجدول
هذا هو الربيـــع وجـــوه البـــديع
تنقلى . . . تنقلى

وفى لظى الحـــريف فى حوشك الوريف
وفى ظلال اللـــوف بجـــانب الشادوف
نامى هناك نامى

وإن أتى الظـــلام ورحـــم الأنـــام
يـــركبك الغـــلام إلى فنـــاء الدار

تنقلى . . . تنقلى

* * *

لقد رحل الممشرى قبل انبثاق فجر الثورة بأربعة عشر عاماً .
ومع هذا . . . فإنه كان على رأس شعراء الثورة .

رحمه الله ، وأنزله جنة الشعراء والملهمين

محتويات الكتاب

			الصفحة
شاعر الرقة العاطفية	:	إبراهيم ناجى	٥
شاعر الجبل الأخضر	:	أبو القاسم الشابى	٢١
شاعر الشباب	:	أحمد رامى	٢٩
شاعر مملكة النحل	:	أحمد زكى أبو شادى	٣٩
أمير الشعراء	:	أحمد شوقى	٤٧
شاعر الكرنك	:	أحمد فتحى	٧٣
المتنبي الجديد	:	إلياس فرحات	٨٥
الأخطل الصغير	:	بشارة الخورى	٩٣
شاعر الأقطار العربية	:	خليل مطران	١٠٥
الشاعر القروى	:	رشيد سليم الخورى	١١٣
شاعر البحر الأبيض	:	صالح شرنو بى	١٢٣
الشاعر العملاق	:	عباس محمود العقاد	١٣٣
الشاعر الظريف	:	كامل الشناوى	١٥١
شاعر النيل	:	محمد حافظ إبراهيم	١٦٥
شاعر الحضارة الريفية	:	م . ع . الهمشرى	١٧٩

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٣١٢٢
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٠٨٤٤ - X

١ / ٨٣ / ١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

٤٠٣٩٨٦/٢

٣٩٠٠

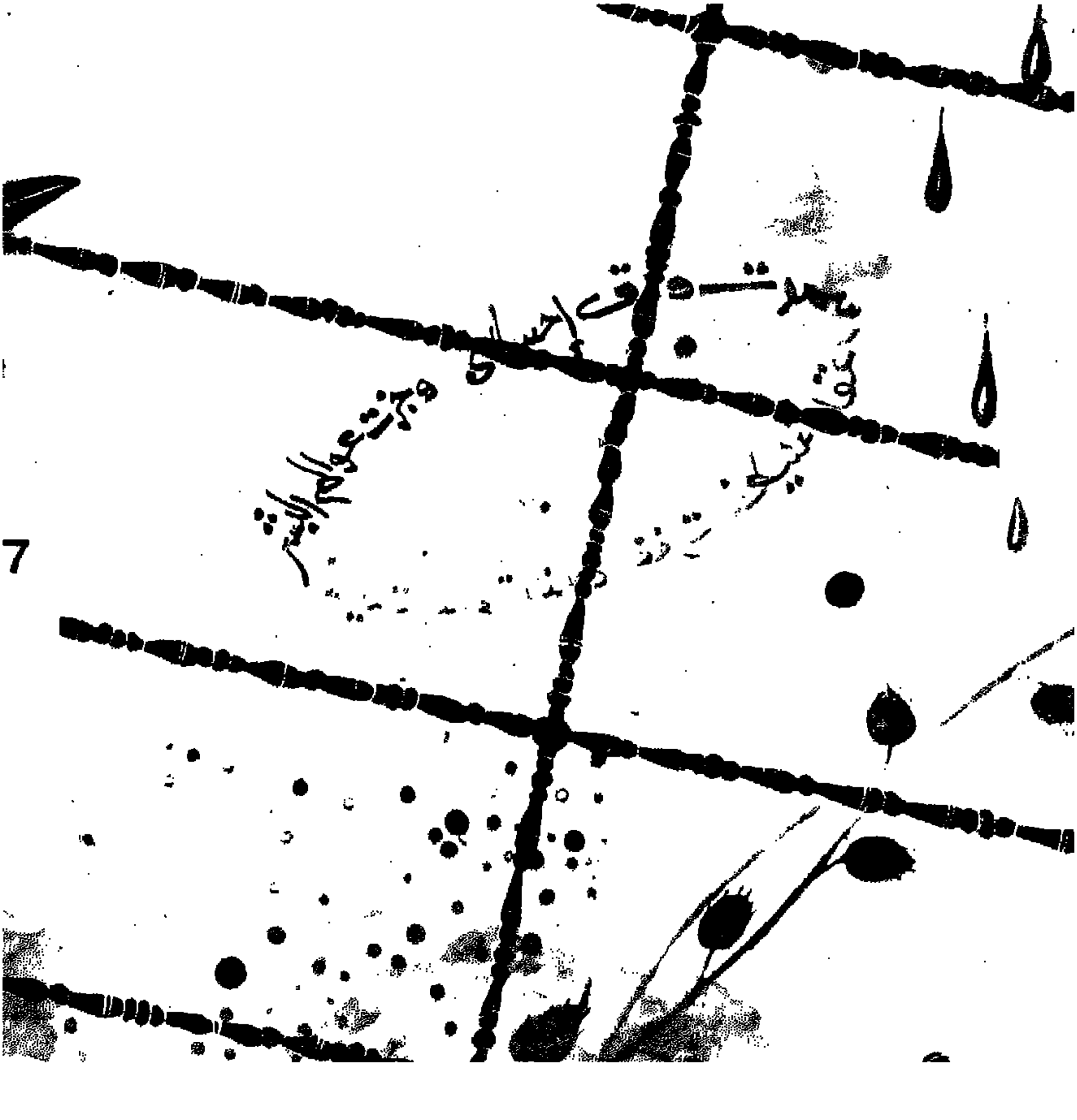

7